الأعلام من الأدباء والشعراء



الصاحب بن عباد

الوزير الأديب

إعداد

الشيخ كامل محمد محمد عويضة

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



إعداد

الشيخ كامل محمد محمد عويضة



الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٦٠٢١٣٣/٩٦١١/٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الناظر في مأثورالعرب في العصر الجاهلي يجد أن كلمة «أدب» ومادتها في استعمالات القوم نادرة، وهي مع هذه الندرة . فيما وصلنا . لم تكن تستعمل بالمفهوم التعبيري الذي نعرفه اليوم؛ فقد اجتازت في هذا السبيل أطواراً انتقلت فيها من معنى إلى معنى، شأن كلمات اللغة دائماً.

ولعل من أقدم استعمالات مادة «أدب» ما روي على لسان طرفة بن العبد المتوفى سنة ٥٦٩:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لاترى الأدب منا ينتقر[١]

فالأدب هنا: الداعي إلى الطعام، فقال: أدب يأدب أدباً . من باب ضرب . دعا إلى الطعام. فالأدب . بسكون الدال . الدعاء إلى الطعام.

ثم ما روي على لسان أعشى قيس، وهو شاعر مخضرم:

---

(١) انظر القصيدة (٥) بيت (٤٦) من ديوان طرفة، طبعة الوارد. والمشتاة: الشتاء، والدعوة الجفلى: الدعوة العامة، والأدب: الداعي إلى الطعام، والانتقار: اختيار أناس دون أناس، فالدعوة النقرى تقابل الدعوة الجفلى.

جروا على أدب مني بلا نزق ولا إذا شمرت حرب بأغمار[1]

وما جاء في حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند، يصف أبا سفيان بن حرب حين خطبها قبل الإسلام: «يؤدب أهله ولا يؤدبونه» وما جاء في ردِّها عليه: «وسآخذه بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلّة تلفتي»[2].

يشير إلى أن الكلمة انتقلت من المعنى الحسي السابق إلى المعنى الخلقي، وقد يكون استعمالها في المعنيين دون ترتيب، ولكن لم يصلنا ما يدل على ذلك.

حتى إذا جاء الإسلام استعملت الكلمة في الدلالة على المعنى التعليمي، مثال ذلك ما روي أن رسول الله ﷺ كان يخاطب وفود العرب على اختلاف لهجاتهم، فيفهم عنهم ويفهمهم، فقال له علي كرم الله وجهه: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلّم الوفود بما لا نفهم أكثره، فقال رسول الله ﷺ: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»[3]. ومثاله كذلك ما جاء في قول كعب بن سعد الغنوي المتوفى في السنة العاشرة قبل الهجرة:

حبيب إلى الزوار غشيان بيته جميل المحيا شب وهو أديب

ثم اطرد استعمالها في العصر الأموي بهذه المعاني الثلاثة، وَكَثُرَ استعمالها في الدلالة على ما كان يُلقيه المعلم إلى طلبته من الشعر

(١) هذا البيت من قصيدة مشهورة تختلف روايتها بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير في الأغاني جـ٨: ص٧٩، ومجمع الأمثال جـ ٢ ص٢٧٦، وشعراء الجاهلية ص ٣٦١، والشعر والشعراء جـ١ ص ٢٦١، ٢٦٢ بتحقيق شاكر.

(٢) الأمالي جـ٢ ص ١٠٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير جـ١ ص ٣ طبع القاهرة سنة ١٣١١هـ.

والقصص، والأخبار والأنساب، وكل ما يُهذِّب النفس ويُثَقِّفُها من مختلف العلوم والمعارف، ومن ثم نشأت مهنة جديدة لجماعة من الناس أطلق عليهم (المُؤَدِّبون)، وهم أولئك المتميِّزون في العلم والأدب، فكانوا موضع ثقة الخلفاء والأمراء فسعوا إليهم لِتأديب أبنائهم وتهذيبهم، وتلقينهم المأثور من ألوان التعبير، وأخذ ألسنتهم بثقاف اللغة على اختلاف اتجاهاتها وفنونها.

ومن ثم اتسع مدلول كلمة أدب ومشتقاتها، وأصبحت شاملة كل ما يُحقق للإنسان العلم والثقافة من معارف، وعلوم، ورواية شعر ونثر: وظلّت على هذا النحو يتسع مدلولها ويضيق وفقاً لمقام استعمالها حتى إذا كان العصر العباسي، ونمت الحضارة العربية، وازدهرت النهضة العلمية، وقويت حركة التأليف والترجمة، أخذ كل لون في الاستقلال بنفسه عن الأدب، فأصبحت كلمة أدب تدل على التعبير الكلامي الجيِّد. شعراً أو نثراً . وما يدور في فلكه من شرحٍ وتعليقٍ ونقدٍ. وأصبحت كلمة أديب تدُّل على كل من يعالج فن التعبير الكلامي قولاً أو نقداً أو شرحاً، ولم تعد تشمل عالم البلاغة أو النحو أو أصول اللغة كما كان.

بيد أن مادة «أدب» كانت تُطلَقْ في بعض الأحيان . مع هذا التخصص . على المعنى العام الشامل لكل ألوان الثقافة ومظاهرها، فقد روي عن الحسن بن سهل الوزير العباسي المتوفى سنة ٢٣٦هـ أنه قال: «الأدب عشرة، فثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربت عليهن، فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج، ولعب الصوالج، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية، وأما العربية

فالشعر والنسب وأيام الناس، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقّاه الناس بينهم من المجالس»[1]. وبهذا المدلول العام استعمل الكلمة إخوان الصفاء، وعبّروا بها عن مختلف العلوم والمعارف في رسائلهم[2]، وذكر ابن خلدون أنهم إذا أرادوا تعريف الأدب قالوا: «الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من علم بطرف»[3].

وما زال هذان السبيلان يتنازعان الكلمة إلى عصرنا الحديث، فتارةً تُستعمل للدلالة على كل ما يحقق الثقافة للإنسان ويُهَذِّب عقله وشعوره ولسانه، وأخرى يُراد بها الكلام الجيّد الذي يُعبِّر به صاحبه عمّا يحِس ويرى شعراً كان أو نثراً.

وهذه سيرة علم كبير من أعلام التاريخ في القرن الرابع الهجري وهو: «الصاحب ابن عباد» وفي عصره انقسمت الدولة الكبيرة المترامية الأطراف إلى أجزاءٍ وإلى إماراتٍ أو دويلاتٍ، بعد دولة واحدة كانت تجمع شمل العرب، وترفع راية الإسلام، وتتخذُ لها قاعدة واحدة في مدينة الرسول ﷺ، ثم في دمشق في بلاد الشام ثم في دار السلام في أرض العراق.

---

(١) الشهر جانية: نسبة إلى الشهاريج أو الشهارجة، وهم أشراف الفرس، والأنوشروانية: نسبة إلى كسرى أنو شروان ملك الفرس من سنة ٥٣١: ٥٧٩م. انظر زهر الآداب للحصري جـ١ ص ١٦٤ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين الطبعة الثالثة ١٣٧٢. ١٩٥٣م.

(٢) أنظر الرسالة السابعة من القسم الرياضي من رسائل إخوان الصفا.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٠ طبع كتاب التحرير بمصر سنة ١٣٨٦هـ.

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٣٨٥هـ. في هذه السنة مات الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بالريّ، وكان واحد زمانه علماً وفضلاً وتدبيراً وجودة رأي وكرماً، عالماً بأنواع العلوم، عارفاً بالكتابة ومواردها، ورسائله مشهورة مُدّونة، وجمع من الكتب ما لم يجمعه غيره، حتى أنه كان يحتاج في نقلها إلى أربعمائة جمل.

ولَمّا حضره الموت قال لفخر الدولة: قَد خدمتك خدمةً استفرغت فيها وسعي، وسرت سيرة جلَبت لك حسن الذكر، فإن أَجريت الأمور على ما كانت عليه نسب ذلك الجميل إليك وتركت أنا، وإن عدلت عنه كنت أنا المشكور ونسبت الطريقة الثانية إليك، وقدح ذلك في دولتك، فكان هذا نصحه له إلى أن مات[1].

وذكر الثعالبي في اليتيمة أن الصاحب لما بلغت سنُّه الستين اعترته آفة الكمال، وانتابته أمراض الكبر، جعل ينشد قوله:

أناخ الشيب ضيفاً لم أرده ... ولكن لا أطيق له مردّا
رداءً للردى فيه دليل ... تردّى من به يوماً تردّى

ووجد في بعض أيام مرضته التي توفي فيها خفةً، فأذن للناس، وحل وعقد، وأمر ونهى، وأملى كتباً تعجّب الحاضرون من حسنها وفرط بلاغتها، وقال:

كلامنا من غُرر ... وعيشنا من غَرَرِ[2]

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/٣٨.

(٢) الغرر. بضم فتح . المحاسن، وبفتحتين الخطر.

إنـــي وحـــق خـــالـــقـــي عـــلـــى جـــنـــاح الـــســـفـــر

ثم لما كانت ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة انتقل إلى جوار ربِّه، ومحل عفوه وكرامته، ومضى من الدنيا بمضيه رونق حسنها، وتاريخ فضلها[1].

وكانت وفاة الصاحب بالريّ، ثم نقل إلى أصبهان، ودُفِنَ في قبة بمحلةٍ تعرف بباب دزيه، قال ابن خلكان[2]: «وهي عامرة إلى الآن، وأولاد بنته يتعاهدونها بالتبييض»[3].

وكانت وفاة الصاحب مظهراً فائقاً رائعاً لما كان له من رفيع المنزلة في قلوب رجال الدولة وعامة الشعب، وقد أطلقت وفاة الصاحب ألسنة شعراء العصر، فكثرت مراثيه، وطالت وجادت، ووجد الشعراء في عظمة الصاحب وشخصيته، وفي مروءته وسماحته، وفي شعره وكتابته، وفي تدبيره وسياسته، وفي تقواه وعفته، معيناً لا ينضب من المعاني المتزاحمة مما، جعلت مراثيهم فيه من خرائد الشعر المصونة، ومن نماذجه العالية.

وقد وضَّحنا للقارىء أسباب شتم التوحيدي للصاحب، وبيّنا ذلك في صفحات طويلة، وأظهرنا أسباب حقده على الصاحب، مبيِّناً أنه حاول أن ينتزع من قلوب الناس، وعقولهم ما وقر عندهم من فضل الصاحب، وما

(١) يتيمة الدهر ٢٧٩/٣.

(٢) وفيات الأعيان ٢٧٧/٢.

(٣) توفي القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان سنة ٦٨١هـ، أي بعد وفاة الصاحب بنحو ثلاثمائة عام.

عرفوه من علمه وسياسته وأدبه، وكأنه مسلّط لاستخراج مخازيه، وإذاعة مساويه، فكتب تلك الرسائل الطويلة التي بثّ فيها سمومه بالقدح والثلب الذي افتنّ في إبرازه افتنان الكاتب الصناع، والمصوِّر الماهر، بدرجة تنتزع الإعجاب، وما ينبغي أن يكون بين أهل العلم والمعرفة من التواصل والتقدير.

وكما سنبيِّن فيما بعد، أبو حيان يذكر لحملاته على الصاحب أسباباً، وكل هذه الأسباب تكشف عن حقدٍ دفين كان صدى لما أحسَّ به من الحرمان، وسوء التقدير، وخيبة التأميل.

وإنه لا يفوتنا أن ننوّه أن التوحيدي كان متفنّناً في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه، ويشتهي أن ينتظم في سلكه فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف في الأدباء، وأديب في الفلاسفة، ومحقق في الكلام، ومتكلم في المحققين[1]، ولكنه كان . كما يقول ياقوت . سخيف اللسان، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذّم شأنه، والثلب دكانه، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية.

وكان مع ذلك محدوداً محارفاً[1] يتشكى صرف زمانه، ويبكي في

(١) ويعده بعض العلماء زنديقاً، قال ابن الجوزي: زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو العلاء المعري، وأبو حيان التوحيدي. قال: وشرّهم على الإسلام التوحيدي، لأنهما صرحا ولم يصرح.

تصانيفه على حرمانه، قال ياقوت: لم أر أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا دمجه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب.

ولعل السبب في هذا الإغفال الذي يشير إليه ياقوت ما رمي به أبو حيان من الزندقة، والإلحاد فتهيّب الناس ذكره، كما حاروا في أمره، فقد صرّح صاحباه . المعري وابن الراوندي . برأيهما فقال فيهما من شاء ما شاء، أمّا هو فكما يظهر من كلام ابن الجوزي كان يخلط السمّ بالشهد، ويخفي طوية نفسه، وحقيقة معتقده. وعلى كل حال ليس المجال هنا مجال البحث في عقيدة أبي حيان، أو الاطمئنان إلى صحة اعتقاده.

وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

وكتبه،

كامل محمد محمد عويضة
جمهورية مصر. المنصورة
عزبة الشال ش
جامع نصر الإسلام

الصاحب ابن عباد

(٣٢٦ - ٣٨٥هـ)

١- نسبه:

هو أبو القاسم إسماعيل أبي الحسن عباد بن العبّاس بن عباد بن أحمد ابن أدريس الطالقاني[١].

وكان أبوه عباد يُكّنى بأبي الحسن، ويُلّقب الأمين، قال أبو حيان التوحيدي في: «أخلاق الوزيرين» إنه كان خيراً، مقدماً في صناعة الكتابة، وكان الأمين ينصر مذهب الأشناني تديناً، وطلباً للزلفى عند ربه، وكان قبل ذلك معلّماً بقرية من قرى طالقان الديلم، ثم كان من أهل العلم والفضل سمع أبا خليفة الفضل بن الخباب وغيره من علماء بغداد وأصفهان والريّ وصنّف كتاباً في أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال وجود فيه، وروى عنه جماعة في مقدمتهم ابنة الوزير أبو القاسم بن عباد وابن

(١) الطالقان - بفتح الطاء واللام - كما ذكر ابن خلكان في «وفيات الأعيان ٢/٣٣٠». وقال: هي إسم لمدينتين إحداهما بخراسان، والأخرى من أعمال قزوين. وأصل الصاحب من طالقان قزوين، لا طالقان خراسان. وذكر ياقوت في «معجم الأدباء ٦/١٦٩» أن الصاحب من أهل «الطالقان» وهي ولاية بين قزوين وأبهر، قال: وهي عدة قرى يقع عليها هذا الاسم، وبخراسان بلدة تسمى «الطالقان» غير هذه، خرج منها جماعة من أهل العلم، هكذا نسبه المحدثون.

مردويه الاصفهاني، وكان عباد كاتباً ووزيراً لركن الدولة البويهي، ومات سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة[1].

وعلى هذا فقد كان عباد وزيراً قبل أن يكون ابنه الصاحب وزيراً. وقال الرستمي فيه:

ورث الوزارة كابراً عن كابر   موصولة الإسناد بالإسناد
يروي عن العباس عباد وزارته   وإسماعيل عن عباد

وقال صاحب سلم الوصول في ترجمة الصاحب: هو الوزير الأديب ابن الوزير الطالقاني. وقال فيه أبو بكر الخوارزمي: الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها، ودبّ ودرج من وكرها[2]، ورضع أفاويق درّها، وورثه عن آبائه.

٢ـ مولده ونشأته:

ولد الصاحب ابن عباد سنة ست وعشرين وثلاثمائة في ذي القعدة، وتوفي ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالريّ، ثم نُقِلَ إلى أصبهان، ودُفِنَ في قبةٍ تُعرف بباب دزيه.

وقد علّم الأب ابنه، وحفظه القرآن، وعلّمه المنظوم والمنثور، ولقّنه ما

---

(١) هكذا ذكر صاحب «سلم الوصول». هو (مخطوط) الورقة ١٦٦. وتردد ابن خلكان بين سنتي ٣٣٤، ٣٣٥. وقال ابن الجزري في «المنتظم» مات ابن عباد في السنة التي مات فيها ابنه سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. وفي كلام ابن الجزري والله تعالى أعلم الشك!

(٢) الدبّ: المشي ببطىء ولم يسرع.
الدرج: المشي بضعف مثل الشيخ والصبي.
الوكر: عش الطائر وموضعه الذي يبيض فيه ويفرخ.

شاء من علم وأدب، وذلك ليُعِده لما كان يرجو له من المنزلة بين الأدباء والوزراء والعلماء، وكان أبوه يطمع لابنه ما كان له من خدمة الملوك، فينال بذلك مجد الدنيا وثواب الآخرة، وكان أبوه كاتب ركن الدولة بن بويه الديلمي ووزيره، وقد كان ديناً مؤمناً صادقاً، ولم يزل أبو الفضل بن العميد في حياة أبيه وبعد وفاته بالريّ، يتدرَّج بين المناصب العليا، حتى وصل إلى ما كان أبيه يطلبه له من جاه الدنيا، فاستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة، ومدحه الشعراء مثل المتنبي بقصيدةٍ مشهورةٍ سائرةٍ التي منها:

من مبلغ الأعراب أني بعدها ... شاهدت رسطاليس والإسكندرا

وسمعت بطليموس دارس كتبه ... متملكاً متبرياً متحضِّرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما ... ردّ الإله نفوسهم والأعصرا

٣ـ تسميته الصاحب:

كان أديبنا الصاحب ابن عباد في بدء أمره من صغار الكُتّاب يخدم أبا الفضل بن العميد عليّاً خاصةً، فترقّت به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه أخي عضد الدولة بن ركن الدولة الديلمي. وكان مؤيد الدولة حينئذٍ أميراً، وأحسن في خدمته، وحصل له عنده بطول الخدمة مكانةً، وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة، فلقّبه بالصاحب كافي الكفاة.

قال ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: هو أول من لُقِّب بالصاحب من الوزراء، لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، فقيل له: «صاحب ابن

العميد، ثم أطلق عليه هذا اللقب لمّا تولى الوزارة وبقي علماً عليه.

وروي أنه لُقّب بالصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا، وسمّاه الصاحب[1]، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به، ثم سمي به كل من ولي الوزارة بعده.

٤ـ ذكر أساتذته:

كان للصاحب أساتذة تعلّم منهم وشرب من فيضهم واقتنى من علومهم، ومن أصدقهم وقعاً في نفسه، أبي الفضل بن العميد، فكان له في نفس الصاحب منزلة عظيمة، وكان يُجله ويُكرمه، ولعل الصاحب لم يمدح بشعره من الملوك والوزراء والأمراء مثل ما مدح به أستاذه أبا الفضل، فمدحه فيه كثيراً استفرغ فيها جهده، وألغى حميته، فمن عظيم فيضه الشعري، هذه الأبيات من قصيدته:

من لصبٍّ يهيم في كل وادِ	وقتيل للحب في غير وادِ
إنما أذكر الغواني والقصد	سعدي مكثراً للتّواد
وإذا ما صدقت فهي مرامي	ومنائي وروضتي ومرادي
وندي ابن العميد أنّي عميد	من هواها ألية الأمجاد
لو درى الدهر أنه من بنيه	لازدرى قدر سائر الأولاد
أو رأى الناس كيف يهتز للجو	دلما عدّدوه في الأطواد
أيها الآملون حطوا سريعاً	برفيع العماد واري الزناد

(١) انظر «التاجي» للصابي.

فهو إن جاد فمن حاتم طيّ ... وهو إن قال قل قس إياد
وإذا ما ارتأى فأين زياد ... من علاوة وأين آل زياد
أقبل العيد يستعير حلاه ... من علاه العزيزة الأنداد
ومديحي وإن لم يكن طال أبيا ... تاً فقد طال في مجال الجياد
إن خير المداح من مدحته ... شعراء البلاد في كل ناد

ومن شعر الصاحب في توديع أبي الفضل بن العميد، وفيه يظهر شغفه وحبه الشديد، وحرصه على أن يظل معه أينما يكون. فيقول:

أودّع حضرتك العاليه ... ونفسي لا دمعتي هاميه
ومن ذا يودّع هذا الجناب ... فتهنئوه بعده العافيه
جناب رعيت به جنة ... قطوف مكارمها دانيه
رأيت به فائضات العلا ... وعلّمت ما الهمم العاليه
كأني ببغداد في شوقها ... إليك وأدمعها الجاريه

ولابن عباد أستاذ آخر هو أبو الحسين أحمد بن فارس الذي حمل إلى الريّ ليقرأ عليه مجد الدولة أبو طالب بن فخر الدولة علي بن ركن الدولة ابن أبي الحسين بويه الديلمي صاحب الريّ، فأقام بها قاطناً.

وكان أبو الحسين أستاذاً لأبي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد، كما كان أستاذاً للصاحب ابن عباد، وكان الصاحب يُكَرِّمُ ابن فارس، وكثيراً ما كان يقول: شَيخُنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف وأمن فيه من التصحيف.

وكان ابن فارس عالماً في علوم شتى، منها اللغة العربية فإنه أتقنها وألّف كتابه «المجمل» في اللغة، وله كتاب حلية القراء، ومسائل في اللغة اهتم بها الفقهاء، وله أشعار كثيرة حسنة[1].

ومن وفاء الأستاذ لتلميذه، أنه ألّف كتاب في «فقه اللغة وسنن العرب في كلامها» ولقّبه بلقب تلميذه، فسمّاه «الصاحبي» وأهداه إليه، وكتب في مقدمته: هذا«الكتاب الصاحبي» في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، وإنما عنونته بهذا الاسم لأني لما ألفته أودعته خزانة «الصاحب» الجليل كافي الكفاة، عمر الله عراص العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره، تَجَمُّلاً بذلك وتحسّناً، إذا كان ما يقبله كافي الكفاة من علم وأدب مرضياً مقبولاً، وما يرذله أو ينفيه منفياً مرذولاً، ولأن أحسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه، ومفاد منه[2].

ولم ينس ابن فارس أن يذكر الصاحب وأن يدعو له قبل أن يُلقي القلم، فكتب في آخر كلماته في الكتاب:«وهذا تمام الكتاب الصاحبي» أتم الله على «الصاحب» الجليل النعم، وأسبغ له المواهب، وسنى له المزيد من فضله، إنه وليّ ذلك، والقادر عليه. وصلى الله تعالى على نبيّه محمد وآله أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل[3]

وأنت المرجّى لإظفارها ... بآمالها وبآمالبه

ولو كنت تأذن لي في المسير ... إذاً سرت في جملة الحاشيه

---

(١) وفيات الأعيان ١/٢٥٢.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها «لابن فارس» ص ٢٠.

(٣) المصدر السابق ص: ٢٣٢.

سبقت جوادك مد الطريق وسرت وفي يدي الغاشيه

وقد كان أبو الفضل بن العميد الأستاذ والمعلم الذي أثّر في حياة الصاحب بعلمه، وترك عنده بصمة الفن، فن الكتابة الذي أوصله إلى ما وصل إليه من منصب الوزارة، فكان تعليمه التعليم المفيد النافع في الحياة وفي العمل وفي الفن الكتابي الذي كان أستاذاً فيه، وصاحب منهج وطريقة متميزة.

٥- عصر الصاحب:

١. عاش الصاحب ابن عباد في القرن الرابع الهجري زمن بني بويه، وهم جماعة من الفرس حكموا العراق وجنوبي فارس زهاء قرن ونيّف، فكان من الطبيعي أن يصاب العرب في عهدهم بنكسةٍ وأن تكون الغلبة للقومية الفارسية، وأن يسود المذهب الشيعي[١] ويتوغل في شرق الإمبراطورية العبّاسية المفكّكة وغربها، وأن يؤدي ذلك إلى صراع عنيف

(١) الشيعة هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً، وإما خفياً. واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده. وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده. وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله. ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولي قولاً، وفعلاً، وعقداً، إلاّ في حالة التقية. وهم خمس فرق: كيسانية، وزيدية، وإمامية، وإسماعيلية. وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشبيه. (الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٤٦، ١٤٧).

بين السنيين الذين كان يساندهم الأتراك وبين الروافض الذين كان يساندهم البويهيون.

وكان هؤلاء على ما لهم من مزايا معروفين بالسطوة والجبروت والقسوة حتى امتلأ تاريخهم بأخبار الويلات والمآسي حلّت بالناس من جرّاء الفوضى التي سادت أيام حكمهم.

٢. إن هذا الانحطاط السياسي كان يقابله رقي عقلي، وكان من نتائج انقسام الدولة العبّاسية إلى دويلات أن عمد أمراؤها سواء لأسباب سياسية، أو بدافع حب الظهور أو تشبيهاً ببغداد إبّان عزّها تشجيع الحركة العلمية ورعاية أهل الفكر والأدب، وبعد «أن كان نصير العلم الخليفة أو وزيره أو بعض عمّاله في بلد واحد أصبح نصراؤه في هذا العصر عدة ملوك وأمراء ووزراء في أشهر مدن العالم الإسلامي» فغدا كل قطر من أقطار المملكة مركزاً هاماً من مراكز الثقافة العربية فعرفت الحركة العلمية التي رعاها الخلفاء العباسيون شيئاً من الاستمرار.

وبالرغم من تشيع البويهيين، ومن يقظة القومية الفارسية فإن هذين العاملين لم يحولا دون انتعاش الفكر العربي، فقد كان كثيرون من البويهيين ووزرائهم على جانب، من الثقافة حتى أصبح أساس الاختيار للوزارة عندهم شيئان:«القدرة الإدارية والقدرة البلاغية» وعرف هذا العهد وزراء احتلوا مكانة مرموقة في تاريخ الأدب والبيان العربيين منهم: أبو الفضل بن العميد وولده أبو الفتح والصاحب ابن عباد الذي جعل داره

مجمعاً لجماعات الكُتّاب والمنشئين والمتكلمين والمتفلسفين والقرّاء حتى قال أبو حيّان التوحيدي يصف مجلسه: «وهل عند ابن عبّاد إلاّ أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون!»، ومن هؤلاء الوزراء الوزير المهلبي وابن العميد «والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير، وإنهم أعيان الفضل، وسادة ذوي العقل، وإذا خلا العراق منهم فرقن على الحكمة المروية، والأدب المتهادي، أتظن أن جميع ندماء المهلبي يفون بواحدٍ من هؤلاء، أو تقدّر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقل واحد منهم!».

كل هذا استدعى نبوغ كثيرين من العلماء والفلاسفة والفقهاء والمحدثين والمفسرين والمتصوفة فعمّ النشاط العلمي مدناً في العراق وفارس كبغداد والبصرة والكوفة والريّ وأصفهان وشيراز وسيراف، على أن بغداد على ما أُصيبت به من ضعف وتضاؤل سياسي بسبب النزاع على الحكم، ودخول عناصر أجنبية، ووجود أكثر من حاكم في وقت واحد،...الخ. إلاّ أنها ظلّت محتفظة إلى حدّ ما ببقايا مجدها القديم، ولم يخطىء متز حين قال: «إن جميع الحركات الروحية في مملكة الإسلام كانت تتلاطم أمواجها في بغداد، وكان فيها لجميع المذاهب أنصار».

٣. كانت الحالة الاجتماعية في أواخر القرن الثالث شبيهة بالحالة السياسية من حيث الفوضى وفقدان الاستقرار، وكان من أبرز مظاهر هذا الاضطراب تباعد في الطبقات الشعبية وسوء توزيع للثروة العامة، وفشو الاستغلال والترف والبذخ في الطبقات العليا على حسب الطبقات الدنيا حتى أصبح الناس كما يقول مسكويه: «بين هارب جالٍ، إلى مظلوم صابر،

إلى مستربح لتسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شرّه وبوائقه» وتعدّ آثار التوحيدي مثلاً صدى أميناً لحالة البؤس التي انحدر إليها الناس، ومن بينهم المفكرون وأهل الأدب والمعرفة وهم الجديرون بحياة كريمة شريفة، فقد كان أبو سليمان السجستاني المنطقي المشهور «بحاجةٍ ماسةٍ إلى رغيف، وحوله وقوّته قد عجزا عن أجرة مسكنه ووجبة غذائه وعشائه».

وكان أبو سعيد السيرافي «عالم العالم، وشيخ الدنيا، ومقنع أهل الأرض على حدّ تعبير تلميذه التوحيدي ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش».

وكان سيّد الفلاسفة يحيى بن عديّ النصراني «يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأكثر» وكان المعافى بن زكريا النهرواني ذا «أنسةٍ بسائر العلوم» شاهده التوحيدي في جامع الرصافة «وقد نام مستدبر الشمس في يوم شاتٍ، وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم، مع غزارة علمه، واتساع أدبه، وفضله المشهور».

وقد زاد الحالة سوءاً كثرة الضرائب واشتداد وطأة الإقطاع، وفرض الرسوم، واشتطاط عمال البويهيين من جندٍ وقوّادٍ ومتصرفين في تحصيل الأموال، واحتكار قوت الفقراء والاعتداء على الناس ومصادرتهم حتى ثارت الطبقات الفقيرة أكثر من مرة وخاصةً في عهدي عضد الدولة وصمصام الدولة، وقال المقدسي يصف حال العراق سنة ٣٧٥: «إنه بيت الفتن والغلاء، وهو في كل يوم إلى الوراء، ومن الجور والضرائب في جهدٍ وبلاءٍ».

٤. كان من الطبيعي أن تتأثر الآداب والفنون بهذا التدهور الاقتصادي، فتجمع الأدباء والمفكرون وأهل المعرفة على أبواب الخلفاء طلباً للرزق، وكثر التزاحم بينهم في جوّ تسوده الدسائس والمؤمرات والوشايات والتملّق، ممّا أبعد الأديب عن المثالية، والترفع عن الدنايا، فحصر جهوده في الوصول إلى المجد والثروة والشهرة فخفّت العاطفة الصادقة، وغلب التكلّف والمبالغة على الأدب، وتلوّن بلون الشحذ والضراعة والاستعطاف، وآمن الناس بالحظوظ والنجوم والطوالع والرزق المقسوم، فعابوا الزمان والفقر وذموه.

٦- بنو بويه:

ابتدأ الدور الثاني للخلافة العباسية في أيام المستكفي بالله الذي تولى الخلافة، أو أسند إليه منصب الخلافة، أسنده إليه القائد «توزون» الديلمي بعد أن غدر بالخليفة المتقي لله (٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ . ـــ ٢٠ صفر سنة ٣٣٣).

وكان الخلفاء من بني العباس يجمعون السلطة الدينية والسلطة الزمنية في تلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف، ولم يبق للخليفة العباسي في بغداد من الخلافة إلاّ اسمها، أي إنه أصبح رمزاً للسلطة الدينية فحسب يدعو باسمه على المنابر، وليس له شيء من الأمر أو النهي، بل لم يبق له وزير يدّبر شؤون الدولة باسمه، وإنما كل ما كان له كاتب يدبر شؤونه المالية ويحصي نفقاته ودخل إقطاعاته لا غير.

أما ما عدا ذلك من شؤون الحرب والسياسة وتدبير أمر الرعية، فلم يكن لخليفة بني العباس منها قليل أو كثير.

وقد ظهر بنو بويه (٣٣٤. ٤٤٧هـ) وفي تلك الفترة أُسندت الخلافة الاسمية إلى خمسةٍ من خلفاء بني العباس، هم المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم.

وكان آل بويه من بلاد الديلم أو بلاد جيلان التي تقع في الجنوب الغربي من شاطىء بحر الخزر «بحر قزوين».

وقد ظل الديالمة على وثنيتهم حتى بعد أن فتح المسلمون بلادهم، وأمّنوهم على أنفسهم وأموالهم في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، على الرغم من أن بلاد طبرستان التي كانت تجاور بلادهم كان يدين أكثر أهلها بالإسلام، وكان بينهم وبين الطبريين سلم وموادعة.

وظلّ الديالمة على وثنيتهم حتى دخل بلاد الديلم الحسن بن علي الأطروش الذي وأقام بينهم مدة ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، ويقتصر منهم على العشر، ويدفع عنهم عدوهم، حتى تبعه منهم خلق كثير، ودخلوا في الإسلام، وبنى في بلادهم المساجد لإقامة الصلاة.

وقد ساد من بني بويه ثلاثة أشقاء استطاعوا بيسالتهم وسخائهم وحسن حيلتهم أن يقودوا الجيوش، وأن يجمعوا حولهم القلوب، وأن ينشروا سلطانهم على بقعةٍ كبيرةٍ من الدولة الإسلامية، حتى كانت لهم دولة مزدهرة في تاريخ الإسلام حكمت مدة طويلة (٣٢٠. ٤٤٧هـ) = (٩٣٢. ١٠٥٥م).

وكان أبوهم بويه بن فناخسرو المُكنّى بأبي شجاع يَدّعي أنه من نسل ملوك ساسان القدماء ليكسب لأسرته نفوذاً في هذه البلاد، وأشهر الذين نقل عنهم هذا القول أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي المتوفى سنة ٣٨٤هـ، فقد قال في كتابه «التاجي» أن بني بويه يرجعون في نسبهم إلى بهرام جور بن يزدجرد الملك الساساني، وأن بويه هو ابن فناخسرو بن تمام ابن كوهي بن شيركوه بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفنه بن سستان شاه ابن سسن بن شيروزيل بن سسناد بن بهرام جورالملك ابن يزدجرد بن هرمز.

وتدل الروايات على أن الصابي حين كان يكتب كتابه «التاجي» لم يكن متمتعاً بتمام حريته، وأنه حمل عليه حملاً، فقد ذكر ابن خلكان أن الصابي كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة، وعن عز الدولة بختيار ابن معز الدولة بن بويه الديلمي.

وكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة بما يؤلمه، فحقد عليه، فلمّا قتل عز الدولة وملك عضد الدول بغداد اعتقله في سنة ٣٦٧هـ، وعزم على إلقائه تحت أيدي الفيلة، فشفعوا فيه، ثم أطلقه سنة ٣٧١هـ، وكان قد أمره أن يضع له كتاباً في أخبار الدولة الديلمية، فعمل «الكتاب التاجي» فقيل لعضد الدولة أن صديقاً للصابي دخل عليه فرآه في شغلٍ شاغلٍ من التعليق والتسويد والتبييض، فسأله عما يعمل، فقال: «أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها». فحركت ساكنه، وهيّجت حقده، ولم يزل مبعداً في أيامه[1].

---

(١) وفيات الأعيان ١٠٩/١.

فهل نستطيع أن نطمئن إلى صحة هذا النسب كما رواه الصابي!

ليس من المعقول أن يصدّق قول الصابي «أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها» على كل ما كتب الصابي بل المعقول أنّ في «التاجي»، بل أن أكثر ما فيه صحيح، فقد كتب على أرض الأحداث، وفي مشهد من الذين عاشوا هذه الأحداث وعاصروها، ولكن الأسباب الضاربة إلى هذا الحد من القدم مجال كبير للشك والتردد، ومجال كبير للحدس والتأليف، لا سيما أن تلك الأمم لم تكن معروفة بحفظ الأنساب، ولم يكن يعرف شيء من ذلك أي من آباء بويه وأجداده قبل أن يصبح أبناؤه ملوكاً وحكّاماً.

على أن هذا النسب الذي ذكره أو اخترعه أو أمر بذكره واختراعه لم يقابله كثير من المترجمين بالرضا والاطمئنان، وطعن بعضهم في أخباره، وقد روى ياقوت ما ذكره ثقات منهم أبو القاسم علي بن محمد الكرخي. وكان شديد الاختصاص بالصاحب . أن الصاحب كثيراً ما كان يقول: «كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع» يعني الصاحب به نفسه.

ويقول ياقوت بعد ذلك: فأما الترجيح بين هذين الصدرين، أعني الصاحب والصابي في الكتابة، فقد خاض فيه الخائضون، وأطنب المحصلون[1]، ومن أشفى ما سمعته في ذلك[2] أن الصاحب كان يكتب

(١) حصل الكلام: رده إلى مفاده ومعناه.
(٢) أي ممّا يشفي الغلة في هذا الباب.

كما يريد، وأبو إسحاق يكتب كما يؤمر، وبين الحالتين بون بعيد[١].

ثم إننا لم نرَ إجماعاً على صحة هذا النسب إلى ملوك آل ساسان القدماء، فقد اختلف المترجمون في بهرام الذي رفع إليه نسب بويه، فقد فقال القائلون بنسبه إلى الفرس هو بهرام جور بن يزدجرد بن سابور[٢]، وقال آخرون بنسبته إلى العرب، وقالوا عن بهرام إنه بهرام بن الضحاك بن الأبيض بن معاوية بن الديلم بن باسل بن ضبة بن إد[٣].

ويرى البيروني أن هذا النسب مختلف لأن الأنساب قَلّ أن تحفظ بالتوالي إذا طال الزمان وامتدّت الأيام، ويقول إن السبيل إلى معرفة صحة الانتماء إلى أصل ما من باطله [illegible] الكافة وإجماع الجيل على ذلك، كسيّد ولد آدم عليه الصلاة السلام.

وقال ابن خلدون إن هذا النسب مصنوع تقرّب إلى بني بويه به من لا يعرف طبائع الأنساب في الوجود، واستبعد أن يكونوا من غير الديلم ثم تكون لهم رياسة على الديلم، كما استبعد أن يختفي نسبهم هذا ولم يكن بينهم وبين يزدجرد وانقطاع الملك إلاّ ثلاثمائة سنة، فيها سبعة أجيال أو ثمانية[٤].

---

(١) معجم الأدباء ٥٢/١٥.
(٢) ابن الأثير ٩١/٨.
(٣) الآثار الباقية من القرون الخالية لأبي الريحان.
(٤) محمد بن أحمد البيروني ٣٨.
تاريخ ابن خلدون ٤٢٦/٤.

وبقي بعد ذلك أن بني بويه كانوا من الديلم، والباحثون عن تاريخهم القديم يختلفون في أصل هذا الشعب كلّه، فيذهب بعضهم إلى أنهم من ولد ضبة الذين كانت مساكنهم بالناحية الشمالية من بلاد نجد بجوار بني تميم، وأنهم قد هاجروا إلى هذه الجهات على أثر نزاع بينهم وبين جيرانهم من القبائل الأخرى، وأنهم افترقوا فرقتين لأنهم كانوا ينتسبون إلى أخوين «ديلم» و«جيل» فبقيت ذرية كل واحد من الأخوين منسوبة إليه[1]، ومعنى ذلك أنهم يرجعون إلى أصل عربي، وقد تشكك في هذا القول أكثر المؤرخين.

وذهب آخرون إلى أن الديلم من أصل فارسي كما مرّ، في حين يرى فريق ثالث أن الديلم كانوا جنساً مستقلاً، وأن المناطق التي كانوا يسكنونها عند بحر قزوين هي مواطنهم الأصلية، وأن لهم صفاتهم وأخلاقهم وطبائعهم المتميّزة التي جعلت لهم شخصية مستقلة وهم شعب بدوي يمتاز بالخشونة والجلد والعجلة وقلّة المبالاة كما يقول الإصطخري[2]، ولمّا أراد الحجاج أن يفتح بلادهم، ولم يكن رجاله يعرفون طبيعتها، أمر برسم مصور لها، فلمّا عرف الديلميون ذلك قالوا: «صدقوك عن بلادنا، هذه صورتها، غير أنهم لم يصوّروا لك فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال، وستعلم ذلك لو تكلّفته[3]، ولمّا علم الخليفة العبّاسي المعتضد خبر دخول أحد الديالمة قزوين، وصفهم

(١) المنتزع من كتاب «التاجي» . الورقة ١

(٢) مسالك الممالك للإصطخري ص: ٢٠٣.

(٣) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ص: ٢٨٣.

بأنهم شر أمة في الدنيا، وأتمهم مكراً، وأشدّهم بأساً، وأقواهم قلوباً... والله لو ملكوا قزوين ــ لنبعوا عليّ ــ من تحت سريري هذا، واحتووا على دار المملكة[1].

وقد ألحق بويه أولاده في خدمة قوّاد الدولة، وكانوا يعيشون مع أبيهم على صيد السمك واحتطاب الحطب، وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتاب «شذور العقود» أن معز الدولة أبا الحسين أحمد بن بويه كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه، ثم ملك هو وأخواه البلاد[2]، وفي حديث صاحب «تجارب الأمم» عن ركن الدولة الحسن بن بويه أنه كان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن أحد تلافيه وردهم عنه، وكان مضطراً إلى فعل ذلك، لأنه لم يكن من أهل بيت الملك، ولا كانت له بين الديلم حشمة من يمتثل جميع أمره، وإنما يرأس عليهم بسماحة كثيرة كانت فيه، ومسامحة في أشياء لا يحتملها أمير عن مأمور[3]، والذي يستفاد من كل هذا أن بني بويه قد صنعوا أمجادهم بأنفسهم، وبنوا ملكهم بسواعدهم وحرابهم وسيوفهم وسخائهم وواسع حيلتهم.

وأولاد بويه الذين سُمّيَت دولتهم «دولة بني بويه» أو «الدولة البويهية» ثلاثة هم:

---

(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي ص: ١٥٥.

(٢) وفيات الأعيان ٢/٧٥.

(٣) تجارب الأمم ٦/٢٧٩.

١. عماد الدولة، علي بن بويه، الذي كان يحكم فارس والأهواز، وكان أكبر بني بويه، ولذلك كان يُلقب «أمير الامراء».

٢. ركن الدولة، الحسن بن بويه، الذي كان يحكم الجبل والريّ وجرجان وطبرستان.

٣. معز الدولة، أحمد بن بويه، الذي حكم العراق وقد أطلقت هذه الألقاب الثلاثة ـ عماد الدولة، وركن الدولة، ومعز الدولة ـ على الإخوة الثلاثة في يوم واحد، وكان الذي أطلقها عليهم هو الخليفة العباسي «المستكفي بالله».

كان هؤلاء الثلاثة حينما قام الديلم بتوسعهم وفتوحهم جنوداً في جيش (ماكان بن كالي) ولكنهم ارتقوا بسرعة إلى مرتبة الأمراء، ثم فارقوه بعد أن ضعف أمره وانحازوا إلى قائد ديلمي آخر هو (مرداويج بن زيار) الذي خرج على (أسفار بن شيرويه) واستولى على بلاد جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان وقم والكرج، فزاد نفوذه حوالي عام ٣٢٠هـ، وتحبّب إلى الرعية، وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه، وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قوّاده، وامتدّت سلطته إلى حدود العراق، وأسس الدولة الزيارية، وعزم على أن يستولي على بغداد، وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب[1].

ولما استقرّت قدم «مرداويج» على هذا النحو، قدم عليه أبناء بويه الثلاثة الذين كانوا قواداً في جيش (ماكان بن كالي) وفارقوه لمّا ضاقت

(١) الأدب في ظل بني بويه ص: ٢٤.

بهم الحال، وكان معهم جماعة من قواد ماكان. وقد رحب مرداويج بأبناء بويه فخلع على عليّ والحسن، وولى القوّاد الذين جاؤوا معهم النواحي، وولّى علي بن بويه بلاد الكرج، وكتب لهم بذلك العهود، فساروا إلى الريّ، وبها «وشمكير» أخو مرداويج، ومعه وزير مرداويج «الحسين بن محمد» الملقب بالعميد. وصادف أن كان لابن بويه بغلة شهباء من أحسن ما يكون، فعرضها للبيع فبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار، فعرضت على العميد فأخذها ونقد ثمنها، فلمّا حمل إلى عليّ أخذ منه عشرة دنانير، وردّ الباقي ومعه هدية جميلة، فكان ذلك بدء الصلة بين العميد وآل بويه.

ولكن مرداويج أحس بالخطأ فيما فعل، وندم على ما كان من اطمئنانه إلى هؤلاء، فكتب إلى أخيه «وشمكير» وإلى العميد يأمرهما بمنع أولئك القوّاد عن المسير إلى أعمالهم، وإن كان بعضهم قد خرج يرد.

ولكن الكتب كانت تصل إلى العميد فيقرؤها قبل وشمكير، ثم يعرضها عليه. فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ إلى عليّ بن بويه يأمره بالمسير من ساعته إلى عمله، ويطوي المنازل، فسار ابن بويه من ساعته.

ولمّا أصبح العميد عرض كتاب مرداويج على وشمكير، فمنع سائر القوّاد من الخروج إلى الريّ، واستعاد التوقيعات التي كانت معهم.

وأراد أن ينفذ خلف علي بن بويه من يرده، فقال العميد: «إنه لا يرجع طوعاً، وربما قاتل من يقصده، ويخرج من طاعتنا» فتركه ووصل علي بن بويه إلى الكرج، وأحسن إلى الناس، ولطف بعمال البلاد، فكتبوا إلى مرداويج

يشكرونه، ويصفون ضبطه للبلاد وحسن سياسته، وصرف كثيراً في استمالة الرجال بالصلات والهبات، فشاع ذكره، وقصده الناس وأحبوه.

ولمّا كان مرداويج بالريّ أطلق مالاً لجماعة من قواده على الكرج، ولكن ابن بويه استطاع أن يستميلهم، فوصلهم وأحسن إليهم حتى مالوا إليه، وأحبوا طاعته، وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش وندم على إنفاذ أولئك القوّاد، فكتب إليهم وإلى عليّ بن بويه يستدعيهم إليه، وتلطّف بهم في هذا الاستدعاء ما استطاع.

ولكن ابن بويه أخذ يراوغه، واشتغل بأخذ العهود على قواده، وخوّفهم سطوة مرداويج، فأجابوه جميعاً، فجبى مال الكرج، واستأمن اليه «شيرازاد» وهو من أعيان قواد الديلم، فقويت نفسه، وسار بمن معه إلى أصبهان فاستولى عليها من يد المظفر بن ياقوت.

وقد بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه، وبلغ مرداويج فأقلقه، وخاف على ما بيده من البلاد، واغتم لذلك غماً شديداً، ولكن مرداويج أراد أن يحتال فكتب إلى ابن بويه يعاتبه ويستميله، ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى يمده بالعساكر الكثيرة ليفتح بها البلاد، ولا يكلّفه سوى الخطبة باسمه في مساجد البلاد التي يستولي عليها. وفي الوقت نفسه جهز مرداويج أخاه وشمكير في جيش كثيف ليأخذ ابن بويه على غرة، فعلم بذلك فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهرين، وتوجّه إلى أرجان وبها أبو بكر ابن ياقوت، فانهزم عنها أبو بكر من غير قتال، وقصد رامهرمز، فاستولى عليّ على أرجان سنة ٣٢٠هـ، واستخرج منها أموالاً قوّى نفسه بها.

وقد جاءته وهو برامهرمز كتب من أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يشير عليه بالمسير إلى شيراز، ويهوّن عليه أمر ياقوت وأصحابه ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الأموال، وكثرة مؤونته ومؤونة أصحابه، وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجبنهم، فتردد عليّ أولاً، ثم عزم على المسير، فسار نحو النوبندجان في ربيع الآخر سنة ٣٢١هـ فلقي بها مقدمة ياقوت فهزمها، ثم سار منها إلى اصطخر، خوفاً أن يقع بين ياقوت ومرداويج، لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه، فقابله ياقوت بجيوشه، فكان النصر لعليّ، وانهزم ياقوت ومن معه.

وكان أحمد بن بويه ممّن ظهر أثره في ذلك اليوم، وهي صبي لم تنبت لحيته، وكان عمره ١٩ سنة. وبعد هذا الانتصار عامل عليّ الأسرى أحسن معاملة، وخيّرهم بين المقام عنده واللحاق بياقوت فاختاروا المقام عنده، فخلع عليهم وأحسن إليهم.

ثم سار حتى أتى شيراز قصبة فارس فاستولى عليها، ونادى في الناس بالأمان، واستولى على كثير من أموال ياقوت وودائعه فسهلت عليه استرضاء الجنود والتودد إليهم فأحبوه، وثبت ملكه.

وعند ذلك أحسّ عليّ بن بويه بحاجته إلى قوة روحية تسنده، وتثبت سلطانه، فأرسل إلى خليفة بغداد (الراضي بالله) وإلى وزيره (ابن مقلة) يعرّفهما أنه على الطاعة، ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد، ويبذل ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك، وأنفذت إليه الخلع واللواء.

ولما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد، وسار إلى أصبهان

للتدبير عليه، وبها أخوه وشمكير، فرأى أن ينفذ عسكراً إلى الأهواز للاستيلاء عليها، ويسد الطريق على ابن بويه إذا قصده، فلا يبقى له طريق إلى الخليفة، ويقصده هو من ناحية أصبهان وسارت عساكر مرداويج حتى بلغت أيذج في رمضان، ثم استولت على رامهرمز في شوال سنة ٣٣٢ هـ ثم استولت على الأهواز وأجلت عنه ياقوتاً.

ولمّا بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الأهواز كاتب نائبه يستميله إليه، ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج، ففعل واستمر الأمر بينهما على أن يخطب ابن بويه باسم مرداويج، وأهدى له ابن بويه هدية جميلة، وأنفذ إليه أخاه الأوسط الحسن بن بويه، ليكون رهينة بين يديه.

ومن حسن حظ ابن بويه أن جنود مرداويج الأتراك تمردوا عليه، لأنه كان كثير الإساءة إليهم، يفضّل عليهم الديالمة الذين هم من عنصره، فاتفقوا على اغتياله فقتلوه سنة ٣٢٣هـ.

وكان رؤوساء المتألبين على مرداويج من الأتراك «بجكم» و«توزون» وهما اللذان توليا إمرة الأمراء بالعراق، و«ياروق» و«ابن بغرا» و«محمد بن ينال» الترجمان.

ولما تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش، فأما الأتراك فافترقوا فرقتين: فرقة منهم لحقت بابن بويه، وفرقة سارت نحو الجبل مع «بجكم». وأما الديلم فقد ذهبوا إلى وشمكير أخي مرداويج أن تخلص الحسن بن بويه الذي كان رهينة عنده، وسار إلى أخيه بفارس.

وعلى هذا صارت القوى الكبرى التي تتنازع بلاد العجم ثلاثاً: قوة علي بن بويه بفارس، وقوة شمكير بالريّ: وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر.

أما ياقوت الذي كان بالأهواز فقد ضعفت قوته حتى لم يعد قادراً على الاحتفاظ بما معه فضلاً عن مصادمة غيره.

وكانت القوة الحية النامية بين هذه القوى جميعاً هي قوة ابن بويه الذي سيّر أخاه الأوسط «الحسن بن بويه» إلى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على أصبهان، وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نوّاب وشمكير، وبقي هو وشمكير يتنازعان هذه البلاد، وهي: أصبهان، وهمذان، وقم، وقاشان، وكرج، والريّ، وكنكور، وقزوين، وغيرها، حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة، حتى استطاع أن يجلي عنها نواب وشمكير.

خطر ببال عليّ بن بويه أن يمد سلطانه إلى الأهواز والعراق، لمّا علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد، وكان هو مشغولاً بإدارة إقليم فارس، وكان أخوه الحسن مشغولاً ببلاد الجبل، أما أخوهما الأصغر «أحمد» فلم يكن له شغل، فسيّره عليّ إلى الأهواز، فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين «بجكم الرائقي» وانهزم بجكم إلى واسط.

٧- فتح العراق:

كان من أهم ما يتطلع إليه ابن بويه المسير إلى العراق بعد الاستيلاء على

واسط، فصار أحمد بن بويه يسير إلى واسط ثم يعود عنها، حتى كاتبه قوّاد بغداد يطلبون إليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد، وقد استجاب لهذا الطلب فسار إلى بغداد حتى وصل إليها يوم ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ، وكان الخليفة بها هو «المستكفي بالله» الذي قابله واختفى به، وبايعه أحمد، وحلف كل منهما لصاحبه، هذا بالخلافة، وذاك بالسلطنة.

وفي ذلك اليوم شرف الخليفة بني بويه بالألقاب: فلقّب علياً صاحب فارس «عماد الدولة» وهو أكبرهم.

ولقّب الحسن صاحب الريّ والجبل «ركن الدولة».

ولقّب أحمد صاحب العراق «معز الدولة» وهو أصغرهم(١).

ومنذ ذلك اليوم أخذ نجم بني بويه في الإشراق واللمعان، وإن أخذت الدولة في التدهور والانحلال، واختلّت أحوال الرعايا أمام أحداث كثيرة لا مجال لتفصيلها في هذه العجالة.

ولقد خطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضاً عن بني العباس، ويوليها خليفة علوياً، لأن البويهيين كانوا شيعة زيدية، قد وصلت إليهم التعاليم الإسلامية على يد الحسن بن زيد، ثم على يد الحسن الأطروش، وكلاهما زيدي. فكانوا يعتقدون أن بني العبّاس قد غصبوا الخلافة من مستحقيها، وهم أبناء عليّ. ولقد حاول معز الدولة ذلك لولا أن بعض

(١) تاريخ الأمم الإسلامية «عصر الدولة العبّاسية» ٣/٣٧٨.

خواصه أشار عليه ألاّ يفعل، وقالوا له: «إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس مع أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا»!

فأعرض عمّا كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبني العبّاس، وانفرد هو بالسلطان، ولم يبق بيد الخليفة شيء البتة إلاّ ما أقطعه معز الدولة ممّا يقوم بحاجته[1].

وعلى الرغم من أن بني بويه قد سلبوا السلطة كلها من يد خليفة بني العباس، وعلى الرغم من رضا الخلفاء بهذا الهوان، لم يسلموا من سوء معاملة البويهيين وظلمهم، ففي سنة ٣٣٤ ذهب معز الدولة إلى دار الخلافة، وذهب إليها سائر الناس على عاداتهم، فلما جلس المستكفي على سريره ووقف الناس على مراتبهم، دخل الأمير فقبّل الأرض على رسمه، ثم قبّل يد المستكفي، ووقف بين يديه يحدّثه، ثم جلس على كرسيّ، فتقدم اثنان من الديلم، ومدّا أيديهما إلى المستكفي، وعلا صوتهما بالفارسية، فظن أنهما يريدان تقبيل يده، فمدها إليهما، فجذباه بها، وطرحاه على الأرض، ووضعا عمامته في عنقه وجرّاه.

فنهض معز الدولة، واضطرب الناس، وارتفعت الزعقات، وافتتنت دار السلطان، وضربت الأبواق. وساق الديلميان المستكفي بالله ماشياً إلى دار معز الدولة حيث خلع، وسملت عيناه، وأُقيم مكانه المطيع خليفة[2].

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٣١٥/٦.
(٢) تجارب الأمم ٨٦/٦.

وطوال القرن الذي وصل فيه نفوذ البويهيين إلى أقصاه (٩٤٥. ١٠٥٥م) واصل البويهيون سياستهم من عزل الخلفاء وتوليتهم وفق هواهم. وكان لهم في بغداد قصور عدة فخمة كان يجعلها باسم دار المملكة.

ولم تعد بغداد السيدة التي تحرك العالم الإسلامي بل زاحمتها، وطغت عليها في ذلك شيراز، وغزنة، والقاهرة، وقرطبة، التي كانت كلها تتقاسم السيادة الدولية في العالم الإسلامي[١].

وكانت مدة ملك معز الدولة في العراق إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٣٥٦هـ ببغداد ودفن في داره، ثم نقل إلى مشهد له بُني له في مقابر قريش[٢]

وولي المملكة بعد وفاة معز الدولة ابنه أبو منصور بختيار الملقب عز الدولة، وتزوج الخليفة الطائع ابنته «شاه زمان» على صداق مبلغة مائة ألف دينار.. وكانت بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بويه منافسات في الملك أدّت إلى التنازع وأفضت إلى المحاربة، فالتقيا يوم الأربعاء ١٨ شوال سنة ٣٦٧هـ، فقتل عز الدولة وكان عمره ستاً وثلاثين سنة[٣].

---

(١) فيليب حتي (تاريخ العرب) ٦١٠/٢.

(٢) هي مقبرة مشهورة ببغداد ومحلة فيها خلق كثير، وبها قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق وأول من دفن بها جعفر الأكبر بن أبي جعفر المنصور سنة ١٥٠ هـ . والمنصور هو أول من جعلها مقبرة لما ابتنى مدينة بغداد سنة ١٤٩ هـ .

(٣) وفيات الأعيان ١١/٢ .

وقد وصلت قوة البويهيين إلى أقصاها في عهد عضد الدولة (٣٦٧. ٣٧٢هـ) = (٩٧٩. ٩٨٣م). ولم يكن عضد الدولة أعظم البويهيين فحسب بل كان أيضاً أعظم حاكم في زمانه. لقد طوى تحت صولجانه كل الدويلات الصغيرة التي ظهرت في عهد الحكّام البويهيين في فارس والعراق، فألّف من المجموع إمبراطورية كادت تصل في الاتساع إلى إمبراطورية هارون الرشيد، وقد تزوج مع ابنة الخليفة (الطائع)، وحمل الخليفة على الزواج من ابنته، وكان يأمل من وراء ذلك أن يكون له ولد يكون له الحق في الخلافة نفسها.

وكان عضد الدولة أول حاكم في الإسلام حمل لقب (شاهنشاه)[1] ولم يقم في آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأةً وإقداماً، وكان عاقلاً فاضلاً، حسن السياسة، شديد الهيبة بعيد الهمة، ثاقب الرأي محباً للفضائل، واهباً باذلاً في مواضع العطاء، مانعاً في مواضع الحزم، ناظراً في عواقب الأمور، وهو الذي بنى على مدينة الرسول ﷺ سوراً إلاّ أنه كان مع ذلك فخوراً يميل إلى اللعب واللهو، وكان شاعراً أديباً، ومن شعره:

ليس شرب الكأس إلاّ في المطر وغناء من جوار في السحر

غانيات سالبات للنهى ناغمات في تضاعيف الوتر

مبرزات الكأس من مطلعها ساقيات الراح من فاق البشر

عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر

(١)شاهنشاه كلمة فارسية معناها «ملك الملوك» وقد صيغت غرار اللقب القديم للملكية. (انظر تاريخ العرب ٢/٦١١) .

وهذا غلو كبير[1]. وقد جمل بغداد وأصلح القنوات التي كانت قد طمست وأقام في كثيرٍ من المدائن المساجد والمستشفيات والمباني العامة، وخصّص جزءاً من أموال الدولة لأعمال الخير والإحسان، ومن المباني الهامة التي شيّدها «مشهد الإمام علي».

ولكن أشهر مبانيه على الإطلاق هو مستشفى بغداد المشهور المسمى «البيمارستان العضدي» وكلّف الخزانة مائة ألف دينار. وكان يعالج المرضى في المستشفى أربعة وعشرون طبيباً كانوا أيضاً بمثابة هيئة تدريس في كليته الطبية.

وكثيراً ما تغنّى الشعراء من أمثال المتنبي[2] بمدح عضد الدولة، كما أهدى إليه كثير من المؤلفين كتبهم مثل النحوي المشهور أبي علي الفارسي الذي ألّف كتاب «الإيضاح» ورفعه إليه[3].

وولي الملك بعد عضد الدولة ابنه أبو كاليجار المزربان الملقب صمصام الدولة الذي اجتمع القوّاد بعد وفاة أبيه على بيعته. وكان إخوته وبنو أعمامه متفرقين في الولايات: فأخوه شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة «بفارس»، وعمّه «مؤيد الدولة أبو منصور بويه» بجرجان.

وقد مكث صمصام الدولة قائماً بأمر العراق في جوّ مضطرب من جرّاء

---

(١) تاريخ الأمم الاسلامية ٣/٢٩٦ .

(٢) أبو الطيب أحمد بن حسن المتنبي، ولد بالكوفة من أبوين فقيرين، ولما ظهرت مخايل ذكائه سافر به أبوه وهو صغير إلى الشام، يردده في القبائل، ويسلمه الى المكاتب، وعلائم نبوغه ناطقة بفضله. توفي مقتولاً سنة ٣٥٤ هـ .(المختار من تاريخ الأدب العربي ١/١٠٣).

(٣) تاريخ العرب ٢/٦١١ .

خلاف أخيه شرف الدولة عليه، واستيلاء الأكراد على بلاد الموصل، فانتهز الفرصة أخوه شرف الدولة صاحب فارس، وتجهز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق، فسار بجيشه سنة ٣٧٥هـ فاستولى على الأهواز من يد أخيه «أبي الحسن الملقب بتاج الدولة» ثم سار إلى البصرة فملكها، واصطلح الأخوان شرف الدولة وصمصام الدولة على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق، وسيّرت إليه الخلع من الطائع لله، فلمّا وردت عليه الرسل بذلك ليحلّفوه رجع عن الصلح، وسار إلى واسط فملكها، واتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند، فقرّ رأيه على اللحاق بأخيه والدولة في طاعته، فسار إليه، وقبض عليه شرف الدولة، وسار إلى بغداد فدخلها في رمضان سنة ٣٦٧هـ. وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهراً.

وفي عهد صمصام الدولة توفي عمّه «مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة» صاحب جرجان، وتولى أخوه فخر الدولة علي بن ركن الدولة على بلاده باختيار القوّاد، والوزير الكبير «الصاحب ابن عباد».

ونقف عند هذا من أخبار بني بويه، لنطيل الحديث عن أديبنا «الصاحب بن عباد»، ولكن وجب علينا أن نشير إلى عناية بني بويه بالعلم والأدب، وحبّهم للعلماء والأدباء، على الرغم من الأحداث والاضطرابات التي وقعت في عصرهم.

٨ـ أدب بني بويه:

كان بنو بويه يحبون العلم والأدب، ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا

العلماء والشعراء والكتاب، فكان أشهر أدباء ذلك العصر من وزرائهم أو عمّالهم أو قضاتهم أو كتّابهم، كابن العميد، والصاحب ابن عباد، وسابور ابن أردشير.. فضلاً عن الأدباء من العمال والقضاة وكتّاب الدولة. على أن ملوك آل بويه أنفسهم اشتهر منهم غير واحد في الأدب والشعر[1].

وأشهر بني بويه في ذلك عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢هـ، وكان كما يقول الثعالبي[2] على ما مكن له في الأرض، وجعل إليه من أزمة البسط والقبض، وخصّ به من رفعة الشأن، وأوتي من سعة السلطان يتفرّغ للأدب، ويتشاغل بالكتب، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء، ويقول شعراً كثيراً.. ووصف الصاحب ابن عباد بعض شعره في قوله: «وأما قصيدة مولانا فقد جاءت ومعها عزّة الملك، وعليها رواء الصدق، وفيها سيما العلم، وعندها لسان المجد، ولها صيال الحق».. وفي قوله: «الأغر وإذا فاض بحر العلم على لسان الشعر أن ينتج ما لا عين وقعت على مثله، ولا أذن سمعت بشبهه».. وقوله «لو استحق شعر أن يعبد لعذوبة مناهله، وجلالة قائله، لكانت قصيدته هي: ألا إني اتخذتها عند امتناع ذلك قبلة أوجه إليها صلوات التعظيم، وأقف عليها طواف الإجلال والتكريم».. وفي قوله: «شعر قد حبس خدمته على فكره، ووقف كيف شاء على أمره، فهو يكتب في غرّة الدهر، ويشدخ جبهتي الشمس والبدر» وقال أبو بكر الخوارزمي: كان ينادم عضد الدولة بعض الأدباء الظرفاء، ويحاضر بالأوصاف والتشبيهات، ولا يحضر شيء من الطعام والشراب وآلاتهما إلا وأنشد فيها لنفسه أو لغيره شعراً حسناً. فبينما هو ذات يوم معه على

(١) جرجي زيدان «تاريخ آداب اللغة العربية» ٢/٢٢٤ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ٢/٢١٦ .

المائدة ينشد كعادته «بهطة أرز يطبخ باللبن والسمن» فنظر عضد الدولة كالآمر إيّاه بان يصفها، فأرتج عليه، وغلبه سكوت معه خجل، فارتجل عضد الدولة وقال:

بهطة تعجز عن وصفها يا مدعي الأوصاف بالزور
كأنها في الجام مجلوّةً لآلىء في ماء كافور

ومن شعره في وصف الخيري[1]:

طيب رائحةٍ من نفحة الخيري إذا تمزّق جلباب الدياجير
كأنما رشّ بالماورد أو عبقت فيه دواخن ند عند تبخير
كأن أوراقه في القد أجنحة صفر وحمر وبيض من دنانير

وألّف له أبو علي الفارسي كتاب الإيضاح والتكملة على النحو، وقصده فحول الشعراء في عصره كالمتنبي والسلامي وغيرهما.

ومن شغفه بالشعر أنه تمنى أن يكون هو المصلوب بدل ابن بقية الوزير، لتقال فيه قصيدة محمد بن عمران الأنباري التي مطلعها:

علوّ في الحياة وفي الممات لَحَق أنت إحدى المعجزات

ومن نكاته الأدبية أن «أفتكين التركي» صاحب دمشق كتب إليه: «إن الشام قد صفا وصار في يدي.. وإن قويتني بالأموال والعدد حاربت القوم في مستقرهم»! فكتب عضد الدولة جوابه كلمات متشابهة في الخط لا

(١) نبات ذو زهر عبق الرائحة.

تقرأ إلاّ بعد الشكل والنقط والضبط وهي «غرّك عزّك، فصار قصار ذلك دلّك، فاخش فاحش فعلك، فعلك بهذا تهدا»!

ومن آداب بني بويه وأشعرهم عز الدولة أبو منصور بختيار ابن معز الدولة، ومن شعره:

فيا حبذا روضنا نرجس — تحيي الندامى بريحانها
شربنا عليها كأحداقنا — عقاراً بكأسٍ كأجفانها
ومسنا من السكر ما بيننا — نجرّر ريطاً[1] كقضبانها

ومن خمرياته قوله:

اشرب على قطر السماء القاطر — في صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها — درّاً نثيراً بين نظم جواهر
من كفّ أغيد يستبيك إذا مشى — بدلال معشوق ونخوة شاطر
والماء ما بين الغصون مصفق — مثل القيان رقصن حول الزامر

ومن شعره الغزلي:

وفاؤك لازم مكنون سرّي — وحبّك غايتي والشوق زادي
وخالك في عذارك في الليالي — سوادٍ في سوادٍ في سواد

ومنهم تاج الدولة بن عضد الدولة، ويقال إنه كان آدب آل بويه

(١) الريط جمع ريطة وهي الملاءة اذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقين.

وأشعرهم وأكرمهم، وكان يلي الأهواز، فأدركته حرفة الأدب، فأدّت إلى نكبته وحبسه من جهة أخيه أبي الفوارس وكان شعره رائقاً عذباً جميلاً، ومنه قوله:

سلام على طيفٍ ألمّ فسلّما ... وأبدى شعاع الشمس لما تكلما
بدا فبدا من وجهه البدر طالعاً ... لدى الروض يستعلي قضيباً منعما
وقد أرسلت أيدي العذارى بخدّه ... عذاراً من الكافور والمسك أسمحا[1]
وأحسب هاروتا أطاف بطرفه ... فعلّمه من سحره فتعلّما
ألمّ بنا في دامس الليل فانجلى ... فلما انثنى عنّا وودّع أظلما

وأنشد له بديع الزمان الهمذاني هذين البيتين:

هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه ... وأعقب بالحسنى من الحبس والأسر
فمن لي بأيام الشباب التي مضت ... ومن لي بما أنفقت في الحبس من عمري

ومن شعره الفاخر الحماسي:

ألا شفيت علتي ... من العداة بالتي
وصارم مهند ... ماضٍ رقيق الشفرة
وليلة أحييتها ... منوطة بليلة
كأنما نسجم الشربا ... في الدجى ومقلتي
جوهرتا عقد على ... نحر فتاة طفلة
أفكر في بني أبي ... وفعل بعض إخوتي

(١) العذارى جمع عذراء وهي البكر، والعذار جانب اللحية، والسحمة السواد، والأسحم الأسود.

تظن أني أحمل الضيم   فأين همتي
تسقنع بالأهواز لي   وواسط والبصرة
لست بتاج الدولة   سليل تاج الملة
إن لم تزر بغداد بي   عمّا قليل كبّتي
وعسكر عرمرم   يملك كل بلدة
حشو الجبال والفلا   مواكب من غلمتي
نصرتهم مني ومن   ربّ السماء نصرتي

ومن قوله في النكبة:

حتى متى نكبات الدهر تقصدني   لا أستريح من الأحزان والفكر
إذا أقول مضى ما كنت أحذره   من الزمان رماني الدهر بالغير
فحسبي الله في كل الأمور فقد   بدلت بعد صفاء العيش بالكدر

ويكفي هذا القدر من الاستشهاد لهذا الشعر الرائع الجميل، يتفجّر من شاعرية مطبوعة، ومن شعراء بني بويه أبو العبّاس خسروبن فيروز بن ركن الدولة، أنشد له الثعالبي في اليتيمة هذه الأبيات من خمرياته:

أدر الكأس علينا   أيّها الساقي لنطرب
من شمول[1] مثل كأس   في فم الندمان تغرب[2]

(١) الشمول : الخمر.

(٢) الكبة: بفتح الكاف وضمها وتشديد الباء الدفعة في القتال والجري، والحملة في الحرب، والزحام، وافلات الخيل.

فحكت حين تجلّت قمراً يلثم كوكب

ورد خديه جنيّ لكن الناطور عقرب[1]

فإذا ما لدغت فالر يق درياق مجرّب[2]

ولا شك أن ملوكاً هذا أدبهم، وتلك آثار شاعريتهم، لجدير بالأدب أن يزدهر في دولتهم، وأن يعزّ بنصرتهم، وأن يطلب الزلفى به إليهم، كل صاحب موهبة وفن، وهكذا كان.

٩- أخلاق الصاحب:

لعل أوضح أخلاق الصاحب وأبرزها ذلك الخلق الذي أجمع عليه الذين عاشروه والذين اتصلوا به، والذين سمعوا منه وتحدثوا إليه، ونقلوا أخباره. قالوا إنه كريم المنبت والمنشأ والتربية، وصاحب ثقافة واسعة في الفن والأدب، وقد كان كريماً في بيته، رفيعاً في علمه وأدبه، فكان أبوه «الأمين» عالماً ووزيراً، ودرج الصاحب على بساط النعمة، وما بالك بمن كانت تعطيه أمه كل يوم وهو ذاهب لتحصيل العلم ديناراً ودرهماً هذا للنفقة وذاك للصدقة على أول فقير يلقاه، فكان كما قال عن نفسه:

لست أستغنم الكثير فطبعي قول «خذ» ليس مذهبي قول «هات»!

وما بالك بمن يصفه أستاذه أبو الفضل بن العميد بأنه «سيّد» ويخاطبه بقوله «مولاي» وإن تعدّدت معاني «المولى» فإنه يذكرها في مقام التعظيم

(١) الناطر والناطور حافظ الكرم.

(٢) الدرياق - بالدال - والترياق - بالتاء - بالكسر فيهما دواء السموم، وهو فارسي معرب.

والتقدير! وما بالك بمن يصرّ على الاعتذار أمام إصرار ركن الدولة على أن يكون مؤدب ولده، ومدرّباً له على شؤون السياسية والتدبير؟.

وما بالك بمن يقال له إنه لن يعترض على أي اقتراح يقترحه، أو أي شرط يشترطه من الأمير الكبير أو من وزيره الخطير؟ لم يكن شيء من ذلك إلاّ لمّا عرف عن الصاحب من الترفع والإباء، مع ما وهب من سائر الأسباب التي تدعو إلى إيثاره والحرص عليه.

ومن ثم عاش الصاحب مبجّلاً معترفاً بفضله وعلمه وأدبه، مشهورة أمجاده وصنائعه، لأنه كان كما قال أبو سعيد الرستمي:

الصاحب العالي الصنائع صاحبي	في النائبات وعدّتي وعتادي
ورث الوزارة كابراً عن كابر	موصولة الاسناد بالاسناد
يروي عن العباس عباد وزا	رته واسماعيل عن عباد
شرف كعقد الدر واصل بعضه	بعضاً كأنبوب القنا المنآد

وإذا عرف ذلك الخلق فيه، وكان له أهلاً، وبه جديراً، فإن ذلك الخلق لم يزعج أحداً من سادته ومواليه، بل كانوا يرون مظاهر استعلائه، فلا يرون في ذلك غضاضة، ولم يسمع عن واحدٍ منهم أنه كان ينكر على الصاحب ما يراه فيه من كبرياء واعتداد بالنفس، فلم يكن الأمر أمر منصب يتولاه، ويتولى غيره منصباً أرقى منه، أو منصباً دونه، فيتصاغر أمام من هو أعلى منه ويتضاءل، ثم يحلّ عقدته النفسية أمام من يصغرونه في المنصب والوظيفة، كما هي شيمة شاغلي المناصب والوظائف، الذين يقدّر كل واحد على حساب درجته من الوظيفة والمنصب، وينظر كل واحد منهم

إلى من هم فوقه وإلى من هم دونه على هذا الأساس، ويقيسهم على حسب هذا القياس.

ولكن الصاحب لم يكن كذلك، بل كان هذا الاعتداد خلقاً فيه، وطبعاً أصيلاً من طبائعه المتميزة، فهو كبير مع الصغار، وكبير أيضاً مع الكبار، ولكنها الكبرياء المترفعة لا الكبرياء البغيضة المتعجرفة، بل إننا لنراه في كثير من المواقف يتلطف لمن هم دونه، ويكبر من شأنهم، ويعلي من نفوسهم، واستطاع الصاحب بذلك أن يجعل للأدب دولة، وللأدباء مقاماً ودولة.

ومن آيات هذا الاعتذار ما ذكر الوزير أبو سعد منصور بن الحسين الآبي في تاريخه من جلالة قدر الصاحب، وعظم قدره في النفوس أنه لمّا توفيت أم كافي الكفاة . الصاحب . بأصبهان، وورد عليه الخبر، فجلس للتعزية يوم الخميس للنصف من محرم سنة أربعاً وثمانين وثلاثمائة، وركب إليه سلطانه، وولي نعمته فخر الدولة ابن ركن الدولة معزياً، ونزل وجلس عنده طويلاً يعزّيه ويسكّن منه، وبسط الكلام معه بالعربية، وكان يفصح بها، فسمعته يقول حين أراد القيام: «أيها الصاحب، هذا جرح لا يندمل»!

فأما سائر الأمراء والقوّاد، مثل منوجهر بن قابوس ملك الجبل، وفولاذ ابن مانادر أحد ملوك الديلم، وأبي العباس الفيروزان بن خالد فخر الدولة، وغيرهم من الأكابر والأماثل، فإنهم كانوا يحضرون حفاة حسّراً.

وكان كل واحدٍ منهم إذا وقعت عينه على الصاحب قبّل الأرض، ثم توالى بعد ذلك إلى أن يقرب منه، ويأمره بالجلوس فيجلس، وما كان الصاحب يتحرك ولا يستوفز[1] لأحد، بل كان جالساً على عادته في غير أيام التعزية.

فلمّا أراد القيام من المعزّى بعد الثالث كان أول من أمر أن يقدّم إليه اللكّاء منوهجر بن قابوس، فإنه قال: يحمل إلى أبي منصور ما يلبسه، فقدم إليه ومنع الخروج من الدار حافياً.

ثم قدّم الحجاب والحاشية اللكاء إلى الجماعة، فعتب فولاذ بن مانادر والفولاذ دريديه عليه ذلك، وقالوا ميّز منوهجر من بين الجماعة، فاحتج الصاحب ببيته العظيم، ورياسته القديمة[2].

وخطب كافي الكفاة ابنة أبي الفضل الداعي لسبطه[3] عبّاد بن الحسين، ووقع الاملاك[4] في داره يوم الخميس لأربع خلون من شهر ربيع الأول سنة أربعاً وثمانين وثلاثمائة، وكان يوماً عظيماً احتفل فيه كافي الكفاة، ونشر من الدنانير والدراهم شيئاً كثيراً، ولذلك أنفذ له فخر الدولة على يدي حجّابه الكبار إلى هناك من النثار[5] ما زاد على مائة طبق عيناً وورقاً[6]،

---

(١) استوفز في قعدته اذا قعد قعوداً منتصباً غير مطمئن..

(٢) معجم الأدباء ٢٣٩/٦ .

(٣) السبط واحد الاسباط، وهو ولد الولد، وعباد ابن بنت الصاحب.

(٤) الاملاك: التزويج.

(٥) النثار بالكسر اسم لما ينثر، وهو هنا الدنانير والدراهم.

(٦) العين الدينار، أو المال. والورق الدراهم المضروبة.

وحضر الفولاذ دريدية بأسرهم، فإن الابنة المزوجة كانت ابنة دبكونة بنت الحسن بن الفيروزان خالة فخر الدولة، وكان القوم أخوالها.

وقد أضافهم الصاحب، ونصبت مائدة عظيمة في بيت طوله لا يزيد على خمسين ذراعاً، وكانت بطول البيت، وأجلس عليه ستة أنفس، وكان فولاذ بن مانادر وكتّات بن بلقسم في الصدر، وبجنب فولاذ أبو جعفر بن الثائر العلوي، وبجنبه الآخر أبو القاسم ابن القاضي العلوي، ودون أحد العلويين كاكي بن بشكرزاد، وعبد الملك بن ماكان للخدمة. ووقف كافي الكفاة أيضاً ساعة، ووقف جميع أكابر الكاتب والحجاب مثل الرئيس أبي العبّاس أحمد بن إبراهيم الضبي، وأبي الحسين العارضي، وأخيه أبي علي وابنه أبي الفضل، وأبي عمران الحاجب، وغيرهم، إلى أن فرغ القوم من الأكل، ثم أكل هؤلاء مع الصاحب على مائدة مفردة.. وأما قاضي القضاة والأشراف والعدول فإنهم أطعموا على مائدة أخرى في بيت آخر.

وقد كان يحضر إلى دار الصاحب أعيان الدولة وأبناء الملوك والأمراء والقوّاد، وسائر من ساواهم من الزعماء والكبار، مثل أولاد مؤيّد الدولة، وابن عز الدولة، ومنوجهر بن قابوس بن وشمكير، وأبي الحجاج بن ظهير الدولة، وأسفهيد بن أسفار، وحسن بن وشمكير، وفولاذ بن مانادر، ونصر ابن الحسن ابن الفيروزان، وأبي العباس الفيروزان بن الحسن الفيروزان، وكتّات بن بلقسم بن الفيروزان، وحيدر بن وهسوذان، وكيخسرو بن المرزبان بن السلار، وجستان بن نوح بن وهسوذان، وشيرزيل بن سلار ابن شيرزل، وكان في يد كل واحد من هؤلاء من الإقطاع ما يبلغ ارتفاعه خمسين ألف دينار وما دونها إلى عشرين ألف دينار، ومن أكابر القوّاد ما

يطول تعدادهم... كانوا يحضرون باب داره، فيقفون على دوابهم مطرقين، لا يتكلم واحد منهم هيبة وإعظاماً لموضعه، الى أن يخرج أحد خلفاء حجّابه، فيأذن لبعض أكابرهم، ويصرفهم جملة، فكان من يؤذن له في الدخول يظن أنه قد بلغ الآمال، ونال الفوز بالدنيا والآخرة، فرحاً ومسرّةً وشرفاً وتعظيماً.

فإذا حصل في الدار، وأذن له في الدخول إلى مجلسه قبّل الأرض عند وقوع بصره على الصاحب ثلاث مرّاتٍ أو أربعاً، إلى أن يقرب منه، فيجلس من كانت رتبته الجلوس إلى أن يقضي كلّ واحد منهم وطره من خدمته،ثم ينصرف بعد أن يقبّل الأرض أيضاً مراراً.

ولم يكن الصاحب يقوم لأحد من الناس، ولا يشير إلى القيام، ولا يطمع منه أحد في ذلك.[1]

وبلغت هيبة الصاحب في الصدور، ومخافته في القلوب، وحشمتة عند الصغير والكبير، والبعيد والقريب، إلى درجة أن كان صاحبه فخر الدولة ينقبض عن كثير مما يريده بسببه، ويمسك عمّا تشره إليه نفسه لمكانه. وقد ظهر ذلك للناس بعد موت الصاحب، وانبساط فخر الدولة فيما لم يكن من عادته، فعُلم أنه كان يزمّ نفسه[2] لحشمته، ثم كان يحله محل الوالد إكراماً وإعظاماً، ويخاطب بالصاحب شفاهاً وكتاباً.

فأما أكابر الدولة فكان الواحد منهم إذا رأى أحد حجّابه بل أحد

---

(١) معجم الأدباء ٢٤٦/٦.

(٢) أي يمنع نفسه من الانبساط، يقال زم البعير أي خطمه.

الأصاغر من حاشيته فإن فرائصه[1] كانت ترتعد، وجوانحه كانت تصطفق[2]، إلى أن يعلم ما يريده منه، ويخاطب به.

وقد تظلمت إلى الصاحب امرأة من أحد أصحاب فولاذ بن مانادر، وذكرت أنه ينازعها في حق لها، فما زاد الصاحب على أن التفت إلى فولاذ، وكان في موكبه يسير خلفه، فبهت وتحيّر، وارتعد ووقف، ولم يبرح إلى أن سار كافي الكفاة، ثم أرسل إلى المرأة من أرضاها، وأزال ظلامتها، ومثل هذا كثير يطول الكتاب ببعضه، فكيف يتسّع لكله[3]؟.

وروى ياقوت عن أبي نصر بن خواشادة أنه قال: ما غبطت أحداً على منزلة كما غبطت الصاحب أبا القاسم بن عباد، فإنا كنا مقيمين بظاهر جرجان مع مؤيد الدولة على حرب الخراسانية، فدخل الصاحب إلى داره في البلد آخرتها يوماً لحضور المجلس الذي يعقده لأهل العلم، وتحته دابة رهواء[4]، وقد أرسل عنانه، فرأيت وجوه الديلم وأكابرهم من أولاد الأمراء يعدون بين يديه، كما تعدو الركابية[5].

وكان عضد الدولة إذا خاطب الصاحب في مجلس يحضره غيره لا يشرك مع الصاحب فيه أحداً[6]. وكان الصاحب لا يستأذن على فخر

(١) الفرائص جمع فريصة، وهي لحمة بين الجنب والكتف، أو عصب الرقبة وعروقها، لأنها هي التي تثور في الغضب.

(٢) اصطفقت جوانحه اهتزت واضطربت.

(٣) معجم الأدباء ٦/٢٤٨.

(٤) دابة رهواء: تسير سيراً على مهل.

(٥) أي السائرون في الركب.

(٦) معجم الأدباء ٦/٢٨٠.

الدولة وهو في مجلس الأنس والانبساط إلا انتقل إلى مجلس الحشمة، فيأذن له فيه. قال الصاحب: ما أذكر أنه . فخر الدولة . تبذل بين يديّ ومازحني قط إلاّ مرة واحدة، فإنه قال لي في شجون الحديث: بلغني أنك تقول: «المذهب الاعتزال، و...الرجال»[١]

فأظهرت الكراهة لانبساطه، وقلت: بنا من الجد ما لا تفرغ معه للهزل، ونهضت كالمغاضب، فما زال يعتذر إليّ مراسله، حتى عاودت مجلسه، ولم يعد بعدها لما يجري مجرى الهزل[٢].

١٠ـ كتابة الصاحب:

قال أبو حيان التوحيدي[٣]: قلت لأبي عبيد الكاتب النصراني ببغداد، وكان سهل البلاغة، حلو اللفظ، حسن الاقتضاب، غريب الإشارة، مليح الفصل والوصل. كيف ترى كتابة ابن عبّاد؟ فقال: هي شوهاء، فيها شيء في غاية التقبّح، وفيها شيء في غاية الركاكة، وبينهما فتور راكد بمذاهب المعلمين الحمقى المتعاقلين أشبه منها بمذاهب السلف الأولين من الكتاب وأصحاب الدواوين. قال: السجع الذي يلهج به هو مما يقع في الكلام، ولكن ينبغي أن يكون كالطِّراز في الثوب، والصنفة[٤] في الرداء، والخط في القَصَب[٥]، والملح في الطعام، والخال في الوجه، ولو كان

(١) موضع النقط كلمتان نابيتان.

(٢) يتيمة الدهر ١٩٩/٣.

(٣) انظر مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي، تحقيق د: إبراهيم الكيلاني ص ٩٣. ٩٤.

(٤) الصنفة: حاشية الرداء أو الثوب أو جانبه الذي لا هدب له أو الذي فيه هدب.

(٥) القصب: ثياب ناعمة كتّان.

الوجه كلّه خالاً لكان مقلياً. قال: وبديعه في هذا الفن لا يستر ركاكته في سائر فنون الكلام، فإن فنون الكلام محصّلة على التقريب بين البدد والسجع، والوزن وما يسميه قوم تجنيساً وتطبيقاً

قال: ومنها شيء يجب أن يسمى المسلسل وأمثلته في كلام أبي عثمان موجودة. ثم قال: والذي ينبغي أن يُهجَرَ رأساً، ويُرغَبَ عنه جملة التكلّف والإعلاق، واستعمال الغريب والعويص، وما يستهلك المعنى أو يفسده أو يُحيله، وينبغي أن يكون الغرض الأول في صحة المعنى، والغرض الثاني في تخيّر اللفظ، والغرض الثالث في تسهيل النظم وحلاوة التأليف، واجتلاب الرونق، والاقتصاد في المواخاة، واستدامة الحال ليستمر الثاني على الأول، والثالث على الثاني، وأن تتوقّى الفضاء الذي يعرض بين الفصل والفصل. قلت: ما معنى الفضاء؟ قال: عدم الرباط بين المتقدم والمتأخر وهو النبوّ العارض في النفس عند سماعه وتحصيله قال والهُجنةُ التي ليس بعدها هجنة، والركالة التي ليس فوقها ركاكة الولوع بالغريب وما يُشكل فيه الإعراب ويتجاذبه التأويل، فإنّ هذا وما شاكله كلفة على النفس عند سماعه، ومؤونة على الطبع عند تخيره، ومشقة على اللسان عند اللفظ به.

١١ـ الأسلوب المثالي:

ثم قال[١]: فخيرُ الكلام على هذا التصفح والتحصيل ما أيّده العقل بالحقيقة، وساعده اللفظ بالرقة، وكان له سهولة في السمع وربح في

(١) انظر المصدر السابق ص: ٩٥.

النفس، وعذوبة في القلب، وروح في الصدر، إذا ورد لم يحجب، وإذا صدر لم يُنس، وإذا طال لم يُمل، وإذا قصُر لم يُحقر، له غنْجٌ كغنج العين، ودلّ كدلّ الحبيب، ولذة كلذة الغناء، وانقياد كانقياد الذليل، وتيه كتيه العزيز، وجمْش كجمش[1] الغانية، ووقار كوقار الشيخ، وحلاوة كحلاوة العافية، ولين كلين الصبيب[2]، وأخذ كأخذ الخمر، وولوج كولوج النسيم، ووقوع كوقع القَطْر، وريح كريح العطر، واستواء كاستواء السطر، وسبك كسبك التبر، يجمع لك بين الصحة والبهجة والتمام، فأما صحته: فمن جهة شهادة العقل بالصواب، وأما بهجته: فمن جهة جوهر اللفظ، واعتدال القسمة، وأما تمامه: فمن جهة النظم الذي يستعير من النفس شغفها ويستثير من الروح كلفها.

١٢ـ أنواع الكتّاب:

ثم قال[3]: قال ابن الربيع: الكتّاب سبعة: الكامل، والأعزل، والمبهم، والرقاعي، والمخيل، والمُخْلط، والسكيت[4].

فأما الكامل: فهو الذي له في الانشاء والإملاء خط.

والأعزل: الذي يُملي ولا يكتب.

(١) الجمش: الصوت الخفي.

(٢) الصبيب: المصبوب والعسل الجيّد.

(٣) المصدر السابق.

(٤) السكيت: آخر خيل الحلبة، وإنما قيل له سكوت لما يعلو صاحبه من الذل والسكوت.

والمبهم: الذي يكتب ولا يُملي.

والرقاعي: الذي يبلغ في الرقاع حاجته، ولا يصلح لعُظَم الكتابة.

والمخيل: الذي له عارضة، وبيان، ورواية، وإنشاء، ويعرف بالآداب، ولا طبع له في الكتابة، وإذا كان عاقلاً صَلُحَ لمنادمة الملوك.

والمخلط: الذي يُرى له في الكتاب الواحد بلاغة جيدة، وفدامة[١] عجيبة.

والشكَّيت: المتخلف المتبلد، وربما جاء بالشيء المحتمل إذا تعنّى[٢] فيه.

١٣ـ مكانة الصاحب:

قلت له[٣]: فمن أيّهم ابن عبّاد؟ قال: هو مُشكل، لا يجوز أن تهضمه فتضعه في أسفل سافلين، ولا يجوز أن تغلط فيه فترفعه إلى أعلى عليين، ثم تضعه بين هذين أين شئت، على أنه على كل حال جَبَليّ! قلت له: قد استمرّ قولك بما لو كان تصنيفاً لك لساغَ وبقي تمامُه في كلمة، هذا وقت المسألة عنها ومعرفة الحال فيها، قال: قُلْ فقد استرسلنا في الحديث وتبثّثنا كل ضمير.

---

(١) الفدم: العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم وفطنة.

(٢) عنا يعنو: بذل مشقة.

(٣) انظر نفس المصدر المذكور سابقاً.

١٤- رأي في القرآن:

قلت[١]: كيف ترى كتابنا، أعني القرآن، وأنت رجل قد أشرفت على غاية هذا الباب، واستوعبت جميع ما فيه؟ قال: ذاك كلام ليس فيه أثر للصنعة، ولا علامة للتكلّف، وهو كلام منسكب انسكاباً، وجارٍ جرياً، يزيدُ لطفه على الطبع بقدر ما يزيد الطبع على التصنّع، قليله كثير، وكثيره غزير، ومعناه أقوم من لفظه، ولفظه أرشق من وزنه، ووزنه أعدل من نظمه، ونظمه أحلى من نثره، ومجموعه أبهى من مفرّقه، ومفرّقه أظرف من مجموعه، وبعضه أغرب من كله، وكله أعجب من بعضه، وهو شيء يستوي فيه تعجّب الجاهل وتحيّر العالم، ويستعلي الذهن، ويستغرق الفهم، ويحجب الرؤية عن الإدراك، ويردّها إلى البديهة في التسليم. وهذا يصح ويبين لمن كان ذا أداة تامة، وعقل ثابت، وعلم غزير وطبع سجيح[٢]، وبصرٍ بالجوهر صحيح، ومعرفة بالصورة والصورة، وبصرٍ وتمييز بين الحال والحال، ورفق[٣] فيما تريد البيان عنه، لا تحمله ما لا يطيق، ولا تحتمل له ما لا يجب، ويكون في جميع ذلك كالطبيب الحاذق، والناصح المُشفق.

قلت له: أفما يكون هذا كله، وما هو عتيد عندك داعياً إلى الإيمان به، والتصديق لصاحبه؟ فقال: أتراني لا أنصح لنفسي في قضاء الحق عنها

(١) السائل: أبو حيان التوحيدي.
(٢) السجيح: اللين السهل.
(٣) الرفق بالكسر: ما إستعين به.

مجتلباً للسعادة، كما أنصح لها في اقتضاء الحق لها مكتسباً للزيادة؟ بلى والله! ولكن وراء هذا ما يُشكل، ويعضل، ويَطول، ويُملّ.

وكان هذا الرجل ممن يدوّن كلامه أبي هلال الصابيء[1]، [قال ينصح] صاحباً له: يا هذا انفع صاحبك على كل حال وإن ضرّك، وزيّنهُ وإن عرّك، وحسِّنْ به ظنّك وإن غرّك.

١٥- ولع الصاحب بالسجع:

وممّا يدلّ على ولوع ابن عبّاد بالسَّجع، ومجاوزة الحدّ فيه بالإفراط، قوله يوماً: حدثني أبو علي بن باش، وكان من سادة الناش، جعل السين شيناً.

ومرّ في الحديث وقال: هذه لغة، وكذب، وكان كذوباً. وكان أبو مالك مرة بين يديه، فقال له: إنما أنت خط وقط فقط، وقبّت أطرافه بحركاته تخنثاً وتأنثاً. وقال لعبد الله المعلم وقد أنشده: يا عبد الله أنت طويل النفس، عتيق القوس، شديد المرس. وقال لشيخ من خراسان في شيء جرى: والله لولا شيء لقطعتك تقطيعاً، وبضّعتك تبضيعاً، ووزّعتك توزيعاً، ومزّعتك تمزيعاً، وجزعتك تجزيعاً، وأدخلتك في حر أمك ثم وقف وقفةً وقال: جميعاً.

ومُلَحُ هذه الحكاية ينثر في الكتابة، وبهاؤها ينقص بالرواية دون

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابيء ولد سنة ٣١٣هـ. نابغة عصره في الأدب والإنشاء تولى دواوين الرسائل زمن البويهيين، كان متعصباً لدين الصابئة، وكان الصاحب ابن عباد يحبه ويتعصب، توفي سنة ٣٨٣هـ.

مشاهدة الحال، وسماع اللفظ، وملاحة الشكل في التحرك والتثني والترنّح والتهادي، ومدّ اليد، وليّ العُنق، وهزّ الرأس والأكتاف، واستعمال جميع الأعضاء والمفاصل.

وقال لابن القصّار الفقيه: لو ناظرته، وكان يذهب مذهب القلانسي. فقال: الرجل كلف بالمذهب، والكلفُ لا يُفهمُك ما يقول استكباراً عليك، ولا يَفهم ما تقول استحقاراً لك.

١٦ـ صورة هزلية:

قال أبو حيان التوحيدي في مثالب الوزيرين: وطلع عليّ يوماً في داره، وأنا قاعد في كسر رواق أكتب له شيئاً قد كأدني به[1]، فلمّا أبصرته قمت قائماً، فصاح بحلق مشقوق اقعدْ فالورّاقون أخِسّ من أن يقوموا لنا، فهممت بكلام فقال لي الزّعفراني الشاعر: احتمل فإن الرجل رقيعٌ فغلب عليّ الضحك، واستحال الغيظ تعجباً من خفّته وسُخفه لأنه قال هذا وقد لوى شِدقه، وشَنَجَ أنفه، وأمال عنقه، واعترض في انتصابه، وانتصب في اعتراضه، وخرج في مَسْلِكِ مجنون قد أفلت من دير جنون. والوصف لا يأتي على كنهِ هذه الحال لأن حقائقها لا تدرك إلاّ باللحظ، ولا يُؤتى عليها باللفظ، أفهذا كله من شمائل الرؤساء، وكلام الكبراء، وسيرة أهل العقل والرّزانة؟ لا والله! وتَرَباً لمن يقول غير هذا.

والموبخ له إذا أساء، والمقوم له إذا اعوّج، لا يسمع إلاّ: صَدَقَ سيّدُنا،

(١) كأده بالشيء: كلفه به.

واصاب مولانا، وما له في الزمان ثانٍ، ولم يُعرف فيمن تقدّم له نظير، رجل هذه المملكة الواسعة العريضة على ما ترى من التمكن والاستعلاء وهو لا يحصّل شيئاً من خراجها وعمارتها، ولا ينظر في مصلحتها ومفسدتها، ولا يعرف المختلس منها ولا الضائع بين الناظرين فيها أعمال بائرة، وبلاد غامرة، وأموال مُحتجنة، وطمع مستحكم، وضعف غالب، وعدو راصد، ووقت فائت بالفرص، وخوف مؤذن بسوء العاقبة، وهو قاعد في صدر مجلسه يقول: قال شيخنا أبو علي وأبو هاشم، تارةً يتطلّس ويتعمّم ويتلحّى ويناظر العامة هذا البقّال وهذا الخبّاز، وهذا الخلقاني[1]، وهذا الإسكاف بالفارسية إما بالدرية وإما بالرازية وإما بغيرهما، ويرى أنه في شيء مهم، وأنه في نشر مذهب، ونُصرة دين، وتارةً يناغي هذا الأمرد، ويعاتب هذا الخادم، وينشد الشاعر البارد الذي يورث الفالج:

أبا يوسف إن العثانين آفة[2] على حامليها فاتخذ لحيةً قصدا
ولا تكُ مشغوفاً بسحب فصولها ولا تُولها إلاّ الإبادة والحصدا

وينشد:

قد استوجب في الحكم سليمان بن مختار
بما طوّل من لحيته التحريق بالنار
أو النتف أو الجزّ أو النشر بمنشار
وقد صار بها أشهر من راية بيطارِ

---

(١) أخلق الثوب: بلي والخلقاني: بائع الثياب العتيقة.

(٢) العثانين: مفردها عثنون وهي اللحية.

١٧ـ مخازي الصاحب:

قال أبو حيان: وسمعت الخثعمي الكاتب، كاتب علي بن كامة يقول: ما رأيت في طول عمري، مع علوّ سنّي، وكثرة تجاربي، وشدة تتبّعي رجلاً أجمع للمخازي والمقابح والرقاعات والجهالات والخساسات والفواحش والخبائث من ابن عبّاد، أفيلُ الناس رأياً إذا ارتأى، وأنكَلُهُم عن الخصم إذا تراءى، وأقلّهم وفاء لمن جعله الله وليّ نعمته، وأوقحهم وجهاً مع كل إنسان، وأحدّهم لساناً بكل خنى وفُحش، وأحسدهم لنظير، ولمن دون النظير، وأسعاهم بالفساد على الصغير والكبير، وأخطبهم[1] على الدين وأضرّهم للمسلمين، وأفجرُهم من بين العالمين، فقلت له: ما الذي يُمِدّه على ما هو فيه، وبأي شيء يطّرد له ما هو عليه؟ فقال: لم يبق فيمن فوقه من ينتقد، ولا فيمن دونه من يزاحم، فقد خلا له الجو فهو يَبيضُ ويَصْفرُ، ويتمطّى ويبوعُ[2]، ويقول سبعاً في ثمانٍ، لم يذل لأحد وذل له كلُّ أحد، وأمر كل إنسان وما نهاه إنسان، وضرّع إليه كل محتاج وما احتاج إلى غيره، نشأ على البطر والحبون[3]، وعلى الخلاعة ةذوالمجون، فبهذا وأشباهه فسدت أخلاقه، وساء أدبه، وبذؤ لسانه، ووقح وجهه، وغلط في نفسه غلطاً شديداً، وأعجب بمربيته إعجاباً بعيداً، وهكذا يفسدُ كل من فقد المخطىء له إذا أخطأ.

---

(١) لعلها من الخطب، وهو الأمر المكروه.

(٢) باع، يبوع: بسط يده ومد باعه.

(٣) رجل أحبن: منتفخ البطن خلقة أو من داء، وبه حبن وقد أحبنه كثرة أكله أو داء اعتراه وخرجت به حبوب وهو دماميل مقيحة.

١٨ـ نوادر مجونية:

قال أبو حيان التوحيدي: فإذا ملّ الشعر قال: قال سعيد بن حميد لأبي هفّان: لئن ضرطتُ عليك ضرطة لأبلغتك إلى فَيْد[١]، فقال أبو هفّان، زدني أخرى تبلغني مكّة فإني صرورة[٢]؟ أتدري يا أبا فلان ما الصّرورة؟ وكم لغة فيها، وما أصلها؟.

ويقول: ضرب المتوكل على فقحة[٣] عبادة فضرط، فقال: وَيْحَكَ ما هذا؟ فقال يا أمير المؤمنين خليفة يقرع باب قوم فلا يجيبونه!

ويقول: مرّ بعلي بن الحسن العلوي رجل عباسي مأبون فقال: من هذا؟ فقيل: هذا تَيْسُ الجنّ، فقال: ينبغي أن يقال له نعجة الإنس!

ويقول: جمع مزبّد بين قحبة وصديقها في بيت فتعاتبا، فأراد أن يجامعها فامتنعت وقالت: ليس هذا موضع ذا، فسمعها مزبّد[٤] فقال: يا زانية! فأين موضعه؟ أين القبر والمنبر، والله ما بُنِيَ هذا البيت إلاّ من خدر القحاب.

ولا وُزِنَ ثمن خشبه إلاّ من أثمان نعال اختطفت في شهر رمضان من

---

(١) فيد: اسم مكان على طريق مكة.

(٢) صرورة: الذي لم يحج.

(٣) الفقحة: حلقة الدبر.

(٤) مزبد المدني أبو إسحاق من مشهوري أصحاب النوادر والفكاهة والعبث. قال التوحيدي عند كلامه عن الجاحظ «وإن هزل زاد على مزبد» معجم الأدباء ١٦/٩٨، فوات الوفيات ٢/٢٠٣.

المساجد، وما اشتريت أرضه إلاّ من السرقة، وما أعرف موضعاً أحق بالزنا فيه منه.

وكان ينشد لابن الحجّاج[1] كل سُخف ويستجيده ويعجب به. أنشد له يوماً:

يسائلني محمد عن أخيه ... وعنه وقد بلوتهما شديدا
فقلت: كلاكما جعس ولكن[2] ... أخوك الحقّ أكثر منك دودا

ويقول: امرؤ القيس والنابغة يقصّران عن هذا الفن وينشد أيضاً له:

ومُصرّفٍ أنفاس ليثٍ خادرٍ[3]
تَصْدُرْنَ عن لهواتِ[4] كلبٍ رابضٍ[5]
ذي لبّةٍ غَرَويّة[6] الريّا[7] وذي ... لحم مُصلٍّ[8] في لُعابٍ حامضٍ
رثّ الثياب بجرّ مَنْبتُه دماً ... فكأنما شفتاه شفرا حائض
لم أدرِ ماذا قال، إلاّ أنه ... ما زال يَفْسو ضرسهُ في عارضي

(١) أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج الكاتب الشاعر الخليع. له ترجمة في معجم الأدباء ٢٠٦/٧، يتيمة الدهر ٣١/٣، شذرات الذهب لابن العماد ٤٢٦/١.

(٢) جعس: تغوط.

(٣) خدر الأسد في عرينه: لزمه.

(٤) لهوات: مفردها لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الحلق.

(٥) ربضت الدابة: بركت.

(٦) غروية: من غرى، وغر السمن قلبه لزق به من الغرا وهو ما طلي أو ألصق به.

(٧) الريا: الرائحة.

(٨) صل اللحم وأصل: أنتن.

١٩ـ أحاديث الصاحب:

قال أبو حيان التوحيدي: ومن أحاديثه السخيفة التي يتنزّه عنها الرؤساء قال: قدم أبو فرعون الأعرابي، وكان يسمى سلمان البصرة، فنظر إلى بعض آل المهلب على فراش قد فرش له، ووصيفته أدماء كأنها ظبية قائمة تذبّ عنه، فجعل يحدج إليها، ويحدّ النظر فقال له صاحبها: أتشتهيها؟ فقال: إي والذي خلقها، قال: فهل لك أن تكشف عما معك بين يدي وتنكحها وأنا ناظر، فإن فعلت ذلك فهي لك، فلما ألقاها وأخرج مَتاعَه كأنه عمود البيت وبرك عليها، صاح به الناس زرّ[1] زرّ، فأكثروا عليه فاستحيا وفَتَرَ وولى هارباً والناس في أثره يصيحون فأخذ برأس متاعه وقال:

فيا لك من أيرٍ جُزيت شرّا	أقمته حتى إذا اكفهرّا
واضطربت أعراقه ودرّا	عاد إليّ وجهه مزورّا
أريد جوّاً ويريد برّاً	كأنه صاحب ذنبٍ فرّا
كأنما ألقم شيئاً مرّا	وما عليك أن يقال زرّا

وحدّث أيضاً قال عبّادة اختصم الحِر والجُحْرُ في الجلدة التي بينهما، فكان كلّ يدّعيها فتقدما إلى الأير فقال: ليست لأحدكما، قالا: فلمن هي؟ قال: هي لي إذا دخلت حططت عليها رحلي، وإذا خرجت استرحت عندها من كَرْبي.

وحكى يوماً عن جَحْظة قال: كانت لي جارية، فحبلت، فقلت لها: يا ملعونة! من أحْبَلَكِ؟ قالت: مَنْ غرّقه يا مولاي!

---

(١) زر القميص: شدّ أزراره وأدخلها في العرى.

قال: وقيل لعُبادة: لم صار الصَّفْعُ بالقَرْع على القَفَا ثقيلاً وفي الجوف خفيفاً. قال: لأنه ينزل على القفا جملة، ويدخل الجوف تفاريق.

وكان ديدنُه السخف والخلاعة والمجون، والرواية عن مزبِّد المدني، وأبي الحارث جُمَّيْز[1] وعبَّاد وجحظة ومن أشبه هؤلاء.

وكان يصنع أحاديث من الفواحش على بني ثوابة ويرويها عنهم، ويسمهم بها، وكان القوم معادين منها على ما حدثنا شيوخ جلّة كرماء، لهم دين ومروءة، وكان يتكذب على اليزيديين وغيرهم، وكان أكثر هذا فيه، وإنما كان يتحدّث بمثله تبرؤاً ونزاهةً، وكان أدنس من الخنزير، ولمثل هذه الخصال كتب إليه أبو راغب فتىً من آل أبي جعفر العُتبي الوزير بخراسان رسالة هَتَكَه بها، وأنا أرويها لتعلم أني لم أنفرد بتهجينه، والنكير عليه، بل كل حرٍّ كريمٍ، وكلّ ديّن مذكور، وكل ذي مروءة ظاهرة معي فيما نثوت[2] عنه وكرهته منه، فإن لم تعبأ بما تسمع مني فاعبأ لعله عندك أشفّ مني، ولا تتسرّع إلى عُتبى هذا الرجل بما قد دونته حتى يتبين الأمر على حقه وصدقه.

٢٠- رسالة أبي راغب العتبي إلى الصاحب:

كتب أبو راغب: قال أبو حيان التوحيدي: أصلحك الله أيها الرجل

(١) جميز: وهو من أرباب النوادر والفكاهة عاصر الجاحظ ودعبل. الأغاني ١/٨٣، الحيوان: ٣/٨٤، ٥/١٩٢.

(٢) نثا الحديث: حدث به وأشاعه.

لنفسك، فإنك إذا صلحت لنفسك، صلحت لقريبك وبعيدك، أما بعد: فإن بُعْدَ صيتك بعثني على تصفح شأنك، وتصفحي لذلك وقفني على أحوال كرهتها لك، وأنفت منها لمن بلغ درجتك، والعيب منك مضاعف، واللسان فيك جوّال، والحقد عليك سريع، ولولا الحال التي أنت عليها من القدرة والتمكّن لكان العذر يناضل عنك، والتوبيخ يتبدّد دونك. وما أحسن ما قال شاعر عصرك في نظمه:

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقصِ القادرين على التمام[1]

قد خوّلك الله ما يفوت ذرع همتك، وأتاك ما يتجاوز اشتطاطك، في حكمك من المال والثروة والرئاسة والعلم والقوة والمكانة بل كله تفضّل في الأول، واختيار في الثاني، وثواب أو عقاب في الثالث، ولقد شددت وشطي في تعرف أخبارك، واستعنت كل عين وأذن في معرفة ليلك ونهارك، فلم أجد في تفصيل ذلك إلاّ ما يعصب برأسك العار، ويحشد عليك أسباب الدمار، ويكون عافيتك منه دخول النار، لأنك تظهر القول بالوعيد، ثم تركب كل كبير من أخذ المال المحرّم، واستباحة الحريم المصون، وقتل النفس المؤمنة، ومساهمة الفَسَقة الفَجَرة، وخدمة الظلمة الغشمة وتقديم أهل المجون والعَيّارة[2]، وفي عُشر هذا سقوط المروءة، والانسلاخ من الدِّيانة، فيا أيها المدلّ بالتوحيد والعدل! أهذا كله في مذهبك أو في مذاهب أسلافك مثل واصل بن عطاء[3]، وعمرو بن

---

(١) البيت للمتنبي من قصيدة مطلعها: ملومكما يجل عن الملام».

(٢) العيار: الكثير التجوال والطواف الذي يتردّد بلا عمل يخلي نفسه وهواها.

(٣) أبو حذيفة واصل بن عطاء رأس المعتزلة وإمام المتكلمين في زمنه ولد سنة ٨٠هـ في المدينة وتوفي سنة ١٨١هـ «ابن خلكان ٢/١٧٠».

عبيد[1]، وأبي موسى المردار[2]، والجعفرين[3]؟ أما كانوا مع بدعتهم التي شانوا بها وجه الإسلام، وكادوا بها أهله، مجتهدين في غير ما أنت به راضٍ لنفسك ومصرّ عليها باعتذارك أن الله لا يخادع، ولا منجاة للعبد إلاّ بالطاعة الخالصة، والتوبة النَّصوح، هذا إذا كان الإيمان ساكناً صدره، والخوف من الله متردداً في أقطار فكره، واليقين بالمعاد عمود دينه، والعلم بالجزاء راسخاً في فؤاده، فأما إذا كان عارياً من هذا كله فهو الكافر بعينه الذي سمعت به، وعاقبة الكافرين جهنّم يصلونها وبئس المصير.

والله ما حركني لنبذ هذا الكلام إليك معتبة عليك لأني لم أنتجعك، ولم أطمع في مالك، ولا عرفت وجهي، ولا سمعت باسمي، لكن أبت نفسي أن تقرّ على الجهل بحالك، وبدُخلة[4] ما يكون عليه أمثالك فآثرت نصيحتك، فإن النبي ﷺ قال: الدين النصيحة، وما أخوفني أن تكون جرأتك على هتك حُرمات الدين، ومعارضة الصالحين مع العكوف على الخسران المبين، إنما قويت وثرت لأنك شارد على ربك، كافر من دين نبيّك مُدّعٍ له بلسانك، شاك فيه بفؤادك، متعجب

(١) أبو عثمان عمرو بن عبيد من شيوخ المعتزلة الأولين توفي بمران قرب مكة سنة ١٤٤هـ زمن المنصور، تاريخ بغداد: ٢/ ١٦٦. ١٨٨هـ.

(٢) أبو موسى عيسى بن صبيح المردار الكوفي من أشياخ المعتزلة وصاحب طريقة المردارية في الاعتزال، كان شديد التطرف والمغالاة في عقيدته.

(٣) الجعفران: جعفر بن مبشر الثقفي المتوفى سنة ٢٣٤هـ. وجعفر بن حرب الهمداني المتوفي سنة ٢٣٦هـ، من رؤساء المعتزلة وعلماء الكلام في بغداد وإليهما ينسب مذهب الجعفرية في الاعتزال.

(٤) الدخلة «مثلثة»: النية والمذهب وجميع الأمر والخلد والبطانة.

ممن له إخلاص، أو له بالدينونة اختصاص، والويل لك إن كنت بهذا قانعاً من نفسك في الحال الأولى، ثم الويل لك مع الثبور إن كنت جاهلاً بما عليك في الحال الأخرى.

حدّثني، أيّ أمرٍ أنت فيه على رشدٍ، وآخذ منه باحتياط، ما أنت عليه من الغلمان المرد الجُرد، أم ما أنت مشهور به من المجانة والسخف؟ ثم تدعي الإطعام للخاص والعام، وقد شاهدنا فوجدنا على بابك قوماً يضربون بالمقارع وجوه الناس، ويحطون على رؤوسهم العذاب طرداً لهم وإبعاداً.

أفما هذا بأمرك وعينك وأذنك؟ فلِمَ تتكلف ما لا تقرّ به، ولم تدعي ما لا تسلم فيه؟ لقد وقفنا عياناً من استخفافك بالأحرار، ووضعك من ذوي الأقدار، وكفرك بوليّ نعمتك، وتعريك من كل شبهة في أمرك ما لو تنفسنا به بين الناس، أو رسمناه بالقلم في القرطاس، لكان ذاك زائداً على تمرّد فرعون، وكفر أبي جهل، وجرأة ديك الجن[1].

لقد قيست مروّتك إلى مروّات قوم قرنوا بالزندقة، فوجدت مروّاتهم فوق ديانتك، ولقد رأينا قوماً لم يتحلوا بالدعوى تحليك استنفدوا قوتهم في طلب مرضاة مؤمليهم ومنتجعي قطرهم، وبلغوا من ذلك المبالغ وأنت مع تمكنك ويسارك لم تسمح من الشاة بظلفها، ثم ملأت الدنيا بالامتنان على الصغير والكبير، كأنك خالق الخلق، وباسط الرزق.

انظر أيها الرجل أي آخر سؤالك، والله إنك شديد الثقة وقد قيل: ربّ واثق خجل، أيها الرجل:

---

(١) عبد السلام بن رغبان الشاعر الحمصي المشهور، ولد سنة ١٦١هـ وتوفي سنة ٢٥٣هـ.

ما طار طير فارتفع	إلاّ كما طار وقع

أما تعتبر بما آل إليه أمر ذي الكفاءنين مع ذلك الثأو[1] والخنزوانة[2]، أما رأيت بعينك في هذه السنين ما يحدوك على الأخذ بالوثيقة لنفسك، وكفّ اليد عن كثير ممّا يُوتغ[3] دينك، ويهشم أنف مروّتك، ويقطع عِرق أبوّتك، ويهيجُ الألسنة على تبكيتك، ويبسط الأيدي في الدعاء عليك، ويحشو القلوب تمني زوال دولتك، فاتعظ بقول الشاعر:

يا أيها الباغي على الأحرار	ثقةً بلين مقادة الأقدار
لا تغترر بمدىً تطاول حينه	فالظلم يُقصر من خُطى الأعمار
والعيش نهلة واردٍ ولربما	شدّت عليه مدارج الإصدار

وأختم قولي هذا بما قال بعض السلف لأصحابه. قال: أحذّركم الدنيا، وأخوّفكم يوم التّناد، يوم لا يُعرف لخير أمد، ولا ينقطع لشرّ أمد، ولا يعتصم من الله أحد.

وأرجو أن تسمع ما صدقت القول فيه باتضاح، وتعرف ما تؤتيه بارتياح، والسلام.

٢١- نوادر الصاحب[1].

قال: ويقول أيضاً، قال أبو العيناء لحجّاج الكاتب: ابنك في أي شيء

---

(١) الثأو: التكبر.

(٢) الخنزوانة : الكبر.

(٣) وتغ: شرخ.

هو في النحو؟ قال: هو في باب الفاعل والمفعول، قال: هو إذاً في باب والدبه! ويقول: قيل لأعرابي: اشترى الأمير سراويل من فنك.

فقال: التقى الثريان[2]! ويُنشد:

شيخ لنا يُعرف بالخلدي يريده في غلظ المُردي[3]

أدخلني ، وما إلى داره فناكني والأير من عندي[4]

٢٢ـ عودة إلى مخازي الصاحب[5]:

قال الخثعمي: وهو في هذا كله على نزَقٍ شديدٍ، وقهقهةٍ عاليةٍ، وتفككٍ قبيحٍ، وسيلان منكر، وشمائل منفرة، الويل له! هلاَّ ترك هذه السخافات والحماقات على قومٍ يليق بهم هذا النمط، وأقبل على الدولة فنظم مختلَّها، وسدّد التي ليس لها محصول؟ يا قوم! أيّ دين يصح له وقد قتل آل العميد؟ وأيّ وفاء يسلم له وقد سَمّ أولاد بُوَيْه الذي هو وليّ نعمته، وحافظُ بهجته، وباسط يده، وبه نال ما نال، وبلغ ما بلغ؟ وأيّ مروءةٍ تبقى له وهو يمنّ بالقليل إذا أعطى؟ وأيّ كرم يُعتقد فيه وهو يغرّ الأمل، ويسحبه على الوعِد؟ حتى إذا انتهى فقراً وضجراً حرمه حرماناً يابساً، وردّه ردّاً مرّاً، وأعطاه شيئاً قليلاً وقحاً.

---

(١) انظر مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي، ص: ١١١.

(٢) جاء في القاموس المحيط: التقى الثريان، شعر العانة ووبر الفروة.

(٣) المردي: خشبة للدفع في السفينة.

(٤) رواية ياقوت:

أديبنا المعروف بالكردي يولع بالغلمان والمرد

(٥) المصدر السابق.

٢٣ـ الصاحب وبنو المنجّم[١]:

وهل تجد فيمن تقدّم عنده، ونفق عليه غير ابن المنجّم[٢]؟ وهو يعبث بلحيته وهامته، ويسخر منه، ويضحك به، ويعمل له الشعر في النوروز والمهرجان وغيرهما، ويسمعه في نفسه يوم المحفل، ويطرب على إنشاده ويقول: ما أحسن شعرك، وما أسلس طبعك، ويعطيه على ذاك، ويتقدم إليه بالقيادة، وبكلّ ما لا يجيزه الدين والمروءة، وكذلك ابن المنجّم الآخر أبو محمد جِبْس جاهل، صلف، سبيله وحديثه أن يقول: وردت على مولانا الصاحب وأنا كالبدر إذا طلع، فعشقني وعشق عذاري، وهام بسببي، ورزقت منه، وخففت على قلبه، وحظيت عنده، وكان يعجبه مني ما لا يجوز التحدّث به، وصدق الخثعمي في هذا كله.

وكان أبو محمد يقول ما هو أكثر ممّا قال، وكان مع ذلك في مسك[٣] كلب، خِسّةً، ولؤماً، ونزقاً، وطمعاً، رأيته يوماً وقد كتب لإنسان كتاباً بمكنسةٍ أخذها منه وجعلها في كمّه، وقضى لآخر حاجة بعشر باذنجانات، والباذنجان إذ ذاك بالري مائة بدانق.

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) راجع ما ذكره صاحب اليتيمة عن بني المنجم فقد وصفهم بقوله: «... وما منهم إلاّ أعزّ نجيب، ولهم وراثة قديمة في منادمة الملوك والرؤساء، واختصاص شديد بالصاحب... وهم: هبة الله بن المنجم، وأبو عيسى بن المنجم، وأبو الفتح بن المنجم، وأبو محمد ابن المنجم، للصولي: أخبار الراضي والمتقي ٩، ١١٥، ١٣٧.

(٣) المسك: الجلد.

وقال أيضاً الخثعمي: وهل يتقدم عنده إلاّ هؤلاء الهُوج الطغام الذين يجوبون الدنيا، ويدخلون كل مكان ويسخرون فيقولون: فعل مولانا، وكان مولانا، وما رأينا مثل مولانا، وإن رأى مولانا أمكننا من نسخ رسائله، وكَتْبِ ألفاظه، فإذا سمع هذا وأشباهه، ماع وسال، وترجرج وذاب، وأعطى عليه وجاد.

٢٤ـ علم الصاحب كما يروي أبو حيان:

قال أبو حيان: كيف تدعي له التبريز في كل علم، وهو لا يعرف النحو إلاّ ما جلَّ منه، ومن الكلام ألا ما وضح، ثم هو على تصحيف شديد، وتخليط كثير، وفي الأخبار على تمويه لا يخفى على مميِّز، وقد أفسد رسائله بطريقة المتكلمين، وأفسد طريقة المتكلمين بطريقة الكتّاب، وكذلك النحو واللغة والحديث.

وهذا وصف ظاهر لا يدفعه إلاّ مكابر. وصدق هذا الشيخ، فإني رأيت ابن ثابت البغدادي المحدّث[1]، وقد سأله عشية يوم عن قول النبي ﷺ: «قوّموا صفوفكم فتراصوا ألا يتخللكم الشياطين كأنها بنات الحذف»، ما الحذف[2] فلم يجبه، وقال: سأقول لك، وأخذ في حديث آخر. قال الخثعمي: وهو مع هذا كله يكذب صراحةً في كل شيء، يقول: كان عندنا معلِّم وسئل عن يوسف أذكر هو أم أنثى؟ فقال: يوسف يذكر

(١) أحمد بن ثابت بن بقية من أهل واسط نزل بغداد وحدث بها، سمعت منه أحاديث سنة ٣٥٣هـ «تاريخ بغداد ٤/١٥٨».

(٢) الحذف: ورق الزرع.

ويؤنث، ألا ترى إلى قول الله عزّ وجلّ: «يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك»[1] وقد اجتمعت له العلامتان. وكان هذا ينسبه إلى إنسانٍ معروف بالأدب، ولكنه كان يُحمّق ابن عبّاد ويبث مخازيه، وكان هذا يضع عليه نوادر باردة.

٢٥ـ ادعاءات الصاحب:

قال أبو حيان: ويقول: دخلت بغداد فلقيت أبا سعيد السيرافي[2] وعلي بن عيسى[3]، والمراغي[4]، وناظرتُ المراغي في عسى ولعلّ وكاد وغير ذلك فأبرزتُ وذكرتُ وأشير إليّ بالأصابع، وفُسح لي في المجامع، وكذلك ناظرتُ فلاناً وفُلاناً وأفدتُهم أكثر مما استفدت منهم.

وسألت أنا أبا سعيد عن هذا فقال: سبحان الله! وسكت استعظاماً لهذا الحديث ونفياً له وهو كما أومأ إليه.

٢٦ـ الصاحب والعروض:

وقلت للمراغي «أبو حيان»: أكان لهذا الحديث أصل؟ فقال: لا والله.

---

(١) سورة يوسف..

(٢) الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعيد السيرافي النحوي تولى القضاء في بغداد وتوفي فيها سنة ٣٦٨هـ «الفهرست ٩٣، ابن خلكان ١٣٠».

(٣) أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني البغدادي، من كبار النحاة في زمنه، ولد في بغداد سنة ٢٩٦هـ، وتوفي فيها سنة ٣٨٤ «طبقات النحويين للزبيدي: ٦٣٠».

(٤) أبو عبد الله المغلسي المراغي، اليتيمة ٤١٥/٣، الإمتاع ١٢٩/١ .

وقال الخثعمي: وهل يدلّ ولوعه بالعروض إلاّ على سوء الطبع، وقلة التأتي، وكان أخذها عن البديهي، وإنما ردؤ شعر البديهي أيضاً لمثل هذا، وبلغ من جنونه عليها، أعني العروض، أنه كان يلقيها على كل لسان ويطالب بها كل شاعر وكاتب حتى أخذ في هذه الأيام يلقن غلاماً تركياً، وآخر قوهياً[1]، وآخر زنجياً، وكان يظهر بهذا وما أشبهه الحذق والبراعة والتخريج.

٢٧ـ الصاحب والنحو:

ثم ينظر في كتاب «الفصيح»[2] و«مختصر الجَرْمي[3]» ويقول: ما رأيت كاتباً يُخطىء إلاّ من هذا، ولا يلحن إلاّ من هذا، وهذا حفظك الله منه مغالطة. إن الكاتب قد يُخطىء من غيرهما أيضاً وهو ذاك المخطىء المحرّف إذا وزنت كلامه بالقسطاس واعتبرته بالقياس على ما أوضحه العلماء والنحويون.

قال: ومن أراد ذلك بينت له، فليس الباب دونه مغلقاً، ولا الطريق إليه متعسّفاً.

---

(١) قوهي: نسبة إلى قوهستان وهي كورة بين نيسابور وهراة قصبتها قاين، وهي أيضاً بلد بكرمان قرب جيروفت.

(٢) «الفصيح» تأليف أحمد بن زيد بن سيار المعروف بثعلب، إمام الكوفيين بالنحو ٢٠٠هـ - ٢٩١هـ.

(٣) الجرمي: أبو عمر صالح بن إسحاق البجلي الجرمي، فقيه نحوي تتلمذ على الأخفش. كان يقول: عن نفسه: «أنا مذ ثلاثون أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه» توفي سنة ٢٢٥هـ. طبقات النحويين للزبيدي ٧٦، ٧٧.

٢٨ـ سخف الصاحب:

ثم قال الخثعمي[١]: وهل مداره إلاّ على السخف، والجَبَه، والمكابرة، والبُهت، يقول فيمن هو أكتب، وأعفّ وأسرى:

جُحر أبي نصر بن كوشاذ[٢] أوسع من مصر وبغداد

قلت له:

هل لك في فَيْشَةٍ[٣] فقال مولاي وأستاذي

ينشد هذا وهو يتطاير ويفتل يده ويتسيّل ويصفق! أفهذه مخايل ذوي الأقدار والرئاسة، أم مخايلُ أصحاب الرعاع والسفلة.

٢٩ـ الصاحب وأهل القصص والحديث:

قال أبو حيان: وهل شاع القول بتكافؤ الأدلة في هذه الناحية إلاّ به، وكثر المراء الجدل والشك إلاّ في أيامه، لأنه منع أهل القصص من القصص والذكر والزجر والمواعظ والرقائق، ومنع من رواية الحديث.

وقال: الحديث حشو وتفسير القرآن ونشر التأويل، وسماع قول الصحابة والتابعين، وما يُعْنى به من الحلال والحرام، ويتعلق بجلائل

---

(١) انظر مثالب الوزيرين ص ١١٦.

(٢) هو أبو نصر خواشاذه الفارسي من رجال العهد البويهي.

(٣) الفيشة والفيش: رأس الذكر.

الأحكام. وطردهم ونفاهم، منهم: ابن فارس[1]، والروياني[2]، وابن بابويه[3]، وابن العطار وابن شاذان [4]، والبلخي وفلان وفلان، وأجلس النجّار ليجتذع الدَّيلم بالزيدية، ويزعم بريء لفسقه وفجوره وتهتكه وظلمه وغصبه ونهبه، وقتله النفس المحرّمة، وأخذه الأموال المحظورة.

وقال الخثعمي[5]: زعم أنه إنما منع المذكِّرين والقصاص لئلا يفشو الحشو والتشبيه، ولئلا يقيسوا عليه الصغير والكبير، فهلاّ منع من الكلام والجدل لئلا يفشوَ الإلحاد ولا يكثر الشبه.

ثم يجلس لأصحاب الحديث، ويروي، ويفسد، ويكذب، ويختلق الأسناد، ويبتك[6] المتن، فأي عيب لم يظهر به، ولم يغلب عليه، وأي خِزْيٍ لم يَبِنْ ولم يكشر، وأي فعل سيِّىء لا فعله. أليس هو سبب كل قبيحة، وفاتح كل باب شرّ؟ فما هذا القَلط[7] فيه، وما هذا التعصب له؟ وما هذا اللجاج بسببه؟ أين العدل الذي يُدل به في مذهبه أن يجور

---

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس من أئمة اللغة والأدب صاحب المجمل والصاحبي في علم اللغة، ولد سنة ٣٢٩هـ وتوفي بالري سنة ٣٩٥هـ.

(٢) نسبه إلى ربى قرية ببغداد.

(٣) محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع، له مصنفات كثيرة توفي في الري سنة ٣٨١هـ.

(٤) ورد ذكره في الإمتاع ١/١٢٩، ١٣٤.

(٥) اسمه محمد بن عبد الله أو عبد الله بن محمد، له من الكتب: الشعر والشعراء، «الفهرست ١٥٩».

(٦) بتك: أي قطع.

(٧) العلط: الذكر بالسوء.

ويغصب ويقتل؟ أم من التدين بالتوحيد أن يركب الفواحش، ويأتي القاذورات، ويخلو بالأُبن[1] والسوءات، ويتسنم الكبائر المبيرات، ثم يبني داراً ليسميها دار التوبة استهزاءً وسخريةً وشخنة عين؟ أم من المعروف أن يتعاطى كل منكر قولاً وفعلاً؟ إني لأظن أن من ينصر هذا الرجل لأعمى أصمّ قد أسلمه الله من يده، وألجأه إلى الشيطان قرينه، أم من العقل والمروءة والكرم والفتوة أن يقول: أين مائدتنا من مائدة مطرّف . يعني أبا نصر مطرّف بن أحمد وزير مرداويج الجبلي، وكان أكرم الناس . ومن مائدة المهلبي، ومن مائدة ابن العميد . وأين طعامنا من طعامه، وأين إطعامنا من إطعامه.

٣٠- ابن العميد وابنه في نظر الصاحب[2]:

وكان أبو الفضل سيّداً، ولكن لم يشقّ غبارَنا، ولا أدرك سرارَنا[3] ولا مسح عذارنا، ولا عرف غرارنا، لا في علم الدين، ولا فيما يرجع إلى منافع المسلمين، فأما ابنه فقد عرفتم قدره في هذا، وفي غيره، طيّاش قلاش[4] ليس عنده إلاّ قاش وقماش مثل ابن عياش، والهروي والحواش. يا قوم هذا كلام من له عقل ورجح إلى رزانة؟.

(١): الأبن: جمع أبنة وهو العيب.

(٢) انظر مثالب الوزيرين ص ١١٨

(٣) السرار: محض النسب وأفضله، وسرارة الشيء: أطيبه وخالصه.

(٤) القلاش والأقلش: المحتال.

٣١ـ تفاخر الصاحب:

ثم يقول في مجلسه: أنا الذعّاف[١]، لمن حساني، والجرّاف لمن عصاني، والحجّاف لمن عناني أو حرّك عناني، أخمصي[٢] فوق هامة الدهر، أين ابن الزيات منا[٣]. أين ابن خاقان[٤] من غلامنا، يعني أبا العبّاس الضبيّ، ومن عليّ بن عيسى الحشوي؟ ومن ابن الفرات[٥] الأرعن؟ ومن ابن مُقلة الخطاط؟ ومن الحسن بن وهب[٦] الضرّاط؟ هل كانوا إلاّ دوننا إذا ذكرت سيادتنا، وشوهدت سعادتنا؟ ولدتُ والشعرى في طالعي، ولولا ربيعة لأدركت النبوة، وقد أدركت النبوة إذ قمت بالذبّ عنها، والنصرة لها، فمن ذا يحاربنا، ويُماربنا، ويُباربنا، ويُعادينا، ويُضاربنا، ويُساربنا، ويُشاربنا؟ وكاد الخثعمي لا يقطع هذا المجلس لطول ما مرّ فيه، وشدة ما أهمه منه، فهذا كما تَرَى.

٣٢ـ المسيني والصاحب:

وقلت للمسيني يوماً «أبو حيان» لِمَ انقطعت عن هذا الرجل وقد كان

---

(١) الذعاف: الذعاف السم القاتل

(٢) أخمص القدم: ما لا يصيب الأرض من باطنها، وربما يراد به القدم كلها.

(٣) محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات الوزير الأديب المنشيء ١٧٣هـ . ٢٣٣هـ.

(٤) الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج أديب وشاعر وزير للمتوكل وقتل معه سنة ٢٤٧هـ.

(٥) أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات وزير المقتدر بالله العبّاسي توفي بالرملة سنة ٣٢٧هـ.

(٦) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين، كاتب وشاعر، كان معاصراً لأبي تمّام والبحتري توفي سنة ٢٥٠هـ.

محسناً إليك، مقدَّماً لك، معجباً بك؟ فقال: الصبرُ على الرُّقاعه مُغور، ومكاذبة النفس وخداع العقل من الكُلف الشاقة والأمور الصعبة، ولعن الله الرغيف إذا لم يُصَبْ إلاّ بضعة النفس، وغضاضة القدر، وكدّ الروح، ومفارقة الأدب الحسن، ودَنَس العرض النقي، وتمزيق الدين المعتقد، وكسب الزور المحيط، وإزالة المروءة المخدومة، وإني لكما قال الشاعر:

وإني على عُدْمي لصاحبُ هِمّةٍ لها مذهب بين المجرّة والنسرِ
وإن امــرأ دنــيــاه هــمّــه لمستمسك منها بحبل غرورِ

٣٣ـ كلام بذيء[١]:

وسمعته يقول لابن ثابت: جعلك الله ممن إذا خرىء شطرّ، وإذا بال قطّر، وإذا فَسا غبّر، وإذا ضرط كبّر، وإذا عفّج[٢] عبّرا.

وهذا سخف لا يليق بأصحاب الفرضة، والذين مشوا بالمزرّفة، واختلفوا إلى الخندق ودار بانوكه والرَّبد والخلد[٣].

٣٤ـ التقبح عند الصاحب:

وسمعته يقول[٤]: أنشدني صقلاب[٥] وابن باب، وقرأت على ابن البوّاب، وسمعت من أبي الحُباب، ورويت لأبي المرتاب الدبّاب كل

(١) انظر مثالب الوزيرين ص ١٢٠-١٢١.
(٢) عفج من العفج: وهو ما ينتقل إليه الطعام بعد المعدة..
(٣) أسماء أمكنة للفساد والدعارة فيما يبدو.
(٤) انظر المصدر السابق.
(٥) ذكره الجاحظ في البيان ونسب إليه البيت الآتي في المعلمين:
وكيف يرجى الرأي والعقل عند من يروح على أُنثى ويغدو على طفل

شيء عجاب، ولقد تحيّر المهلّبيّ مني، وعرف معزّ الدولة فضلي وأدبي، وأكبر قدري، وبلغ الحدّ الأقصى في أمري!.

٣٥ـ إنكار الجبر[١]:

وأنشدني أبو دُلف الخزرجي عندما رأى من كلفه بالمذهب وإفراطه في التعصّب[٢]:

يـا ابـنَ عـبّـاد بـن عـبّـا ... س بـن عـبـد الـلـه جِـرهـا[٣]
تُـنـكـر الـجَـبْـرَ وقـد أخـ ... رجْـتَ فـي الـعـالـم كُـرهـا

٣٦ـ الصاحب وبنو ثوابة[٤]:

وكان إذا نشط واهتزّ لا يُسمع منه إلا حديث عبادة وجحشويه وأمثال هؤلاء، وكان يضع على بني ثوابة كل حكاية غثّة فاحشة.

٣٧ـ كلام المجانين[٥]:

فأما الذي يدل على كلام المُبَرْسمين[٦] والمجانين، ومن قد شهِرَ

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) نسب البيتان في ياقوت، وكذلك في اليتيمة إلى السلامي في هجاء الصاحب، ورواية البيت الثاني في ياقوت:

تـنـكـر الـجـبـر وأخـرجـ ... ت إلـى دنـيـاك كـرهـا

(٣) وجره يجره وجراً: أسمعه ما يكره.

(٤) مثالب الوزيرين ص : ١٢٢

(٥) مثالب الوزيرين ص : ١٢٢ - ١٢٣

(٦) البرسام : التهاب الحجاب الذي بين الكبد والقلب والمبرسم من أصيب بالبرسام.

بالصرع والماليخوليا[1] فما سمعته يقول لشيخ خراساني قد دعا به وأكرمه وتوفّر له وكلمه، فسمعته يقول: ما يجب أن يكون لا يقتضي، وما يكون فيه لا يجب أن يكون، وقد يجب أن يكون ما يكون، ويكون ما يجب أن لا يكون، وإنما لا يكون ما يجب أن يكون، فيكون ما يجب ألا يكون، لأن ما يجب أن يكون ليس في وزن ما يكون، والكون والوجوب لا يتلازمان، بل يجتمعان ثم يفترقان، والاجتماع والافتراق عليهما جاريان، فلهذا يُرى الواجب كائناً، والكائن واجباً، وما أكْثَرَ من يظنّ أن الكون متضمن الوجوب، والوجوب متضمن الكون، وتحصيل الفصل بينهما بالنظر من سحر العقل، وهذا فَنٌّ لم أجد فيه لمشايخنا شوطاً محموداً، ولعلي أملي فيه كلاماً بسيطاً بجميع ما يكون شرحاً له إن شاء الله.

٣٨ ـ الابتلاء بالصاحب:[2]

فلما خرجنا قلت للخراساني وقد أخذنا في المؤانسة، وتجاذبنا أطراف الحديث كما قال الشاعر:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناقِ المطيّ الأباطحُ[3]

كيف سمعت الليلة ذلك الكلام في الكون والايجاب؟ فقال: يا خيبتي! إما أن يكون هذا الرجل مرجوماً في أيديكم، أو تكونوا مرجومين

(١) السوداء Melancolie .

(٢) المصدر السابق.

(٣) لعل المقصود هنا حرارة القيظ أو غيره.

في يده، أما في بلدكم مارستان! أما للسلطان شفقة على هذا الانسان، أما له من يأخذ بيده وينصح له في نفسه، ويكسح هذا الخرف من عقله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

٣٩ ـ فلسفة الحق:[١]

وقال يوماً آخر لابن القطّان أبي الحسن الفقيه المتكلم: أيها الشيخ! أنت على الحق قال: نعم. قال: والله الحق. قال: نعم. قال: فأنت على الله. فقال القصار: الحمد لله على سرعة هذا الانقطاع، وسطوع هذا البرهان، ولزوم هذا الحكم. فلما خرج قلنا له: هلاّ فصلت أيها الشيخ وقد عرّض بك، وتضاحك عند الإشارة إليك؟ فقال: وما مناقلتي رجلاً لو كان في المارستان مغلولاً لكنت لا آمن جنايته إذا كلمته، فكيف وهو مطلق مطاع؟ ونعوذُ بالله من مجنونٍ قادر مطاع، كما نعوذُ به من عاقل ضعيف مَعْصيّ.

ثم قال: وهذا الكلام من صاحبه سوء أدب، وضعف عقل، وخسارة نفس، واجتلابُ مَقْت، وقلة دين، إن الحق، والحق اسمان يقعان بالاشتراك في اللفظ على معنيين مختلفين وأنا على الحق، ولكن على الحق الذي ضده الباطل، ولستُ على الحق الذي لا ضدّ له، والحقُّ يُطلقُ على الله، ويراد به أنه محقِّقٌ، والحق يُطلق على ما عَدَاه، ويراد به أنه مُحقق، والله الحق المحق المحقق، وما جاوره فهو الحق المحق المحقق، وإذا قيل

(١) مثالب الوزيرين ص : ١٢٤ .

في وجه آخر: الله محقق فالمراد به غيرُ هذا، لأنه يُراد به أنه مُثبت موجود، ومعتقد مشهود له بالوحدة والقدرة، والحكمة والمشيئة.

٤٠ ـ انقطاع الصاحب:

قال أبو حيان في مثالب الوزيرين، وحدثنا ابن عبّاد يوماً قال: ما قَطعَني إلا شاب وَرَدَ علينا أصبهان من بغداد يقصدني فأذنت له، وكان عليه مُرقَّعة، وفي رجله نعل طاق، فنظرتُ إلى حاجبي، فقال له وهو يصعد إليّ: اخلع نعلك، قال: ولِمَ؟ ولعلي أحتاج إليها بعد ساعة، فغلبني الضحك وقلت: أتراه يريد أن يصفعني بها؟

٤١ ـ حقد أبـي حيان علـى الصاحب:

لقد قرأنا فيما سبق ووجدنا فيه مدى حقد التوحيدي على الصاحب، ولقد نعت الصاحب أبو حيان التوحيدي بنعوت كثيرة تدل على مبلغ حقده على الصاحب، وعوامل هذا الحقد كثيرة سنعرض لها، وقد حاول فيها أن ينال من عظمة الصاحب، فقال فيه كلاماً كثيراً كما بينا لم يقله واحد غيره من الذين عرفوا الصاحب واتصلوا به وعاشروه، وكان مما قال عن الصاحب في كتابه «الامتاع والمؤانسة»: أنه «لا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة، والناس كلهم محجمون عنه، لجرأته وسلاطته، واقتداره وبسطته، شديد العقاب، طفيف الثواب، طويل العتاب، بذيء اللسان، يعطي كثيراً قليلاً ــ أعني يعطي الكثير القليل، مغلوب بحرارة الرأس، سريع الغضب، بعيد الفيئة[1]، قريب الطيرة،

---

(١) أي بعيد الرجوع إلى الرضا.

حسود حقود حديد، وحسده وقف على أهل الفضل، وحقده سار إلى أهل الكفاية، أهل الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته، وأما المنتجعون فيخافون جفوته. وقد قتل خلقاً، وأهلك ناساً، ونفى أمة، نخوة وتعنتاً وتجبراً وزهواً».

وهذا كلام حاقد حاسد جرّد فيه أبو حيان الصاحب من كل فضيلة، وانتزع منه كل مكرمة. ولو كان الصاحب فيه ما قال أبو حيان أو بعض ما قال أبو حيان، لكان جديراً أن تسودّ صفحة تاريخه، وأن يذكره المؤرخون بالغضب واللعنة إلى أبد الآبدين، وأن يتجافاه الناس لحسده وحقده وسطوته التي يؤثر بها ذوي الكفاية، ويخص بها أهل الفضل، ولما كان له أتباع وكتاب وعمال، ولفسدت الأرض، واختل صفو الحياة كيف وقد ذكره الثقات الذين يعتد بأخبارهم، ويؤخذ بأقوالهم شاهدين له بالفضل يستبق الناس إلى بابه، ويرجون المقام في رحابه التي لم تضق يوماً بأهل الفضل والكفاية.

كيف نصدق أبا حيان الحاقد الحاسد الكاذب فيما أكده الأمناء العارفون الذين يقولون إن الصاحب «قد احتفل به من نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر من يربي عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، وملك رق المعاني».. ويقولون «هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان، وينبوع العدل والاحسان.. ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق.. الخ[1].

(١) يتيمة الدهر ١٨٩/١٨٨/٣.

لقد صور أبو حيان الصاحب فيما صوّر جباراً عنيداً، بل وحشاً ضارياً، ولو صدقناه في هذه الصورة فكيف نوّفق بين هذه الصورة والصورة الأخرى التي رسمها للصاحب بعدها مباشرة في قوله «وهو مع هذا يخدعه الصبيّ، ويخلبه الغبيّ، لأن المدخل عليه واسع، والمأتى إليه سهل، وذلك بأن يقال: «مولانا يتقدم بأن أعار شيئاً من كلامه، ورسائل منشورة ومنظومة، فما جبت الأرض إليه من فرغانة إلى غانة ومصر وتفليس الا لأستفيد كلامه وأفصح به وأتعلم البلاغة منه، لكأنما رسائل مولانا قرآن، وفقره فيها آيات فرقان، واحتجاجه من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوق برهان، فسبحان مع جمع العالم في واحد، وأبرز جميع قدرته في شخص».. فيلين عند ذلك ويذوب، ويلهى عن كل مهمّ له، وينسى كلّ فريضة عليه، ويتقدم إلى الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورق والورق[1]، ويسهّل له الإذن عليه والوصول إليه، والتمكن من مجلسه[2].

فنحن في الصورة الأولى أمام صاحب بطش وجبروت وقسوة وصرامة مباعدة منفّرة، وفي الصورة الأخرى أمام طفل وديع، أو أمام رجل ساذج يخدعه الصبيان، ويغرّه الأغبياء بمعسول القول بكلمات ثناء مفتعلة، يصلون بها إلى ما يشتهون، من الأموال والأرزاق، والرضا والتقريب.

فكيف يمكن التوفيق بين الصورتين المتناقضتين اللتين رسمهما أبو حيان بخياله السقيم، وأوحى بهما قلبه المريض؟

(١) يريد بأحد الورقين الدراهم المضروبة وهو بفتح الواو وكسر الراء.
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٥٦/١.

لقد اضطرنا أبو حيان بأكاذيبه وتلفيقاته أن نخصه في هذا البحث ببيان، يعرف به القارىء حقيقته والعوامل التي كانت تبعثه على ما افتراه في حق الصاحب، وذلك كما ذكرنا من قبل.

ولقد كان الصاحب . على خلاف ما ذكر أبو حيان . إنسانا دمث الخلق، رقيق القلب، لا يستحل قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا يستحل العقوبة بقطع الأرزاق قائلاً «إنها نذالة» وتجاوز الرفق والرحمة التي تمكنت من قلبه الناس إلى الحيوان، فلا يستبيح تعذيبه والتمثيل به.

٤٢ ـ رحمة الصاحب:

وقد نقل ياقوت ما يؤكد الرحمة التي طبع عليها قلب الصاحب في قوله: ومما وجدت في بعض الكتب من مكارم الأخلاق للصاحب: أن الصاحب استدعى يوماً شراباً من شراب السكر، فجيء بقدح منه، فلما أراد شربه قال له بعض خواصه: «لا تشربه فإنه مسموم» فقال له: «وما الشاهد على صحة ذلك»؟ قال: «بأن تجربه على من أعطاكه»! قال: «لا أستجيز ذلك ولا أستحله». قال: «فجربه على دجاجة»! قال الصاحب «ان التمثيل بالحيوان لا يجوز».

ثم أمر الصاحب بصب ما في القدح، وقال للغلام انصرف عني، ولا تدخل داري بعدها. وأقرّ رزقه عليه، وقال: «لاتدفع اليقين بالشك، والعقوبة بقطع الرزق نذالة»[1]!

---

(١) معجم الأدباء ١٨٥/٦.

ودخل على الصاحب رجل لا يعرفه، فقال له الصاحب: أبو من؟ فأنشد الرجل:

وتتفق الأسماء في اللفظ والكنى كثيراً ولكن لا تلاقى الخلائق

فابتسم الصاحب، وقال له: اجلس يا أبا القاسم! فقد فطن إلى كنيته من بيته، وكان الصاحب يقول لجلسائه إذا أراد أن يبسطهم ويؤنسهم: نحن بالنهار سلطان، وبالليل إخوان[1]!

ومن أخباره أنه مرض مرة بالإسهال، فكان كلما قام عن المطهرة وضع عندها عشرة دنانير لئلا يتبرم به الفراشون، فكانوا يتمنون لو طالت علته. ولما عوفي أباح للفقراء نهب داره، وكان فيها ما يساوي نحواً من خمسين ألف دينار من الذهب[2].

فأية رقة وراء هذه الرقة في معاملة الناس، والرفق بهم، والتلطف معهم؟!

ثم اقرأ قول أبي حيان الذي يبرز الصاحب فيه رجلاً مغروراً معجباً بنفسه مستبداً برأيه، وأعجب لهذه الصورة البيانية الرائعة التي رسمتها ريشة أبي حيان بأسلوبه التهكمي اللاذع في قوله: «والذي غلطه في نفسه وحمله على الاعجاب بفضله، والاستبداد برأيه، أنه لم يجبه قط بتخطئه، ولا قوبل بتسوئة، ولا قيل له أخطأت أو قصرت أو لحنت أو أخللت، لأنه نشأ على أن يقال: أصاب سيدنا، وصدق مولانا، ولله درّه، ولله بلاؤه، ما رأينا مثله، ولا سمعنا من يقاربه، من ابن عبد كان مضافاً إليه؟ ومن ابن

(١) يتيمة الدهر ١٩٦/٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٥/١١.

ثوابة مقيساً عليه؟ ومن ابراهيم بن العباس الصولي إذا جمع بينهما؟ من صريع الغواني؟ من أشجع السلمي إذا سلك طريقهما ومتح برشائهما وقدح بزندهما؟ قد استدرك مولانا على الخليل في العروض، وعلى أبي عمرو بن العلاء في اللغة وعلى أبي يوسف في القضاء، وعلى الاسكافي في الموازنة، وعلى ابن نوبخت في الآراء والديانات، وعلى ابن مجاهد في القراءات، وعلى ابن جرير في التفسير، وعلى أرسطوطاليس في المنطق، وعلى الكنديّ في الجزء[1]، وعلى ابن سيرين في العبارة، وعلى أبي العيناء في البديهة، وعلى ابن أبي خالد في الخط وعلى الجاحظ في الحيوان، وعلى سهل بن هارون في الفقر، وعلى يوحنا في الطب، وعلى ابن ربن[2] في الفردوس، وعلى عيسى بن دأب في الرواية، وعلى الواقدي في الحفظ، وعلى النجار في البدل[3]، وعلى ابن ثوابة في التفقه، وعلى السّريّ السقطي في الخطرات والوساوس، وعلى مزيْد[4] في النوادر، وعلى أبي الحسن العروضي في استخراج المعمى، وعلى بني برمك في الجود، وعلى ذي الرياستين في التدبير، وعلى سطيح في الكهانة، وعلى ابن المحيّا خالد بن سنان العبسي في دعواه[5]، وهو والله أولى بقول ابي شريح أوس بن حجر التميمي في فضالة بن كلدة:

---

(١) يريد الجزء الذي لا يتجزأ، وهو ما يسمى بالجوهر الفرد.

(٢) هو علي بن ربن كان طبيباً مشهوراً، ألف كتاباً اسمه «فردوس الحكمة».

(٣) البدل اسم كتاب في علم الكلام لأبي عبد الله الحسين بن محمد النجار.

(٤) هو أبو اسحاق مزيد المدني، اشتهر بنوادره المضحكة وبسرعة خاطره ولطيف ملحه.

(٥) خالد بن سنان زعموا أنه كان نبياً في زمن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وكان بأرض عبس، وأصحاب هذه الأسماء التي ذكرها أبو حيان، كان كل واحد منهم علماً لكل علم، وفن من العلوم والفنون التي أوردها إلى جانب أسمائهم.

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

هذا هو الكلام الذي يصل إلى قلب الصاحب، كما تخيله أبو حيان، وهذا الثناء والتفضيل اللذان كان يسمعهما من جلاسه ومخالطيه هما سرّ غرور الصاحب وكبريائه كما زعم أبو حيان، إن الظن يسبق إلى أن أبا حيان هو الذي كان يحاول أن يخدع الصاحب بأمثال هذا الكلام، لأنه أعرف الناس، وهو أحذقهم في معرفة فحول الفكر والفن والسياسة والعلم!

ثم اقرأ كيف تصور أبو حيان موقع أمثال هذا الثناء من نفس الصاحب، وكيف صوّره في قوله: «فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويتبسّم، ويطير فرحاً ويتقسم ويقول: «ولا كذا[1]، ثمرة السبق لهم وقصرّنا أن نلحقهم، أو نقفو أثرهم، ونشقّ غبارهم، أو نرد غمارهم»، وهو في كل ذلك يتشاكى ويتحايل، ويلوي شدقه، ويبتلع ريقه، ويردّ كالآخذ، ويأخذ كالمتمنّع، ويغضب في عرض الرضا، ويرضى في لبوس الغضب، ويتهالك ويتمالك، ويتقابل ويتمايل، ويحاكي المومسات، ويخرج في أصحاب السماجات. ومع هذا كله يظن أن هذا خاف على نقاد الأخلاق، وجهابذة الأحوال، الذين فرّغهم الله لتتبع الأمور، واستخراج ما في الصدور، واعتبار الأسباب، وذلك أنه ليس بجيد العقل، ولا خالص الحمق.

قال: وقد أفسده أيضاً ثقة صاحبه[2] به وتعويله عليه، وقلة سماعه من

---

(١) وهكذا الكلمة ظاهرها الرغبة في الاقتصاد من المدح، وباطنها كما يروي أبو حيان الحث على الاكثار.

(٢) يريد بصاحبه الملك الذي استوزره، وهو مؤيد الدولة أو فخر الدولة أخوه، فكلاهما استوزره.

الناصح فيه، فمذر بازدهاء المال والعلم والاقتدار والأمر والكفاية وطاعة الرجل وتصديق الجلساء والعادة الغالبة، وهو في الأصل مجدود[1] لا جرم، ليس بقله مكان دلالاً وشرفاً، وعجباً وتيهاً وصلفاً، واندراء[2] على الناس، وازدراء للصغار والكبار، وجبهاً[3] للصادر والوارد، وفي الجملة آفاته كبيرة، وذنوبه جمة.

وسئل أبو حيان: وكيف يتم له ما هو فيه مع هذه الصفات التي تذكرها؟ فقال: والله لو أن عجوزاً بلهاء، أو أمة ورهاء[4] أقيمت مقامه، لكانت الأمور على هذا السياق! فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: قد أمن أن يقال له: لمَ فعلت؟ ولمَ لمْ تفعل؟ وهذا باب لا يتفق لأحد من خدم الملوك إلا بجد سعيد[5].. ألست تجد في هذا حديثاً لذيذاً للسمر، وتأليفاً طريفاً للمتعة، أمتع به أبو حيان جليسه الوزير، وشفى به ما في نفسه وما في نفس وزيره، ولكن على حساب الصاحب، وعلى حساب النيل من عرضه ومروءته، بل على حساب أعراض الناس ومروءاتهم؟!

٤٣ ـ بديهته وحضور جوابه

وعرف عن الصاحب أنه سريع النكتة. حاضر الجواب كثير الفكاهة والدعابة وكان ذلك أثراً لثقافته الواسعة وعلمه المتبحر وتجاربه الكثيرة

---

(١) المجدود: المحظوظ.

(٢) الاندراء: الاندفاع والتهجم.

(٣) أي جبههم عند ملاقاتهم بما يكرهون.

(٤) الورهاء: الحمقاء.

(٥) الامتاع والمؤانسة ١/٦٠، ٦٩.

توقد ذهنه وحضور بديهته. وقد رويت له في هذا السياق طرائف ممتعة. منها عدا ما سنذكره في أدبه:

ورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه: رسائل من تقرأ عندكم؟ فقال رسائل ابن عبد كان[1]. قال: ومن! قال: رسائل لصابي ثم غمزه أحد جلسائه ليقول «ورسائل الصاحب» ورآه الصاحب يغمزه، فقال: تغمز حماراً لا يحس؟

وأطال شاب عنده المكث ولم يقتد بغيره في المقام فقال: للفتى، من أين؟ فقال: من قم قال الصاحب: فإذاً قم!

كان المأموني الأبهري الشاعر قال في شاعر أبهري آخر يهجوه:

كلانا إلى آدم يعتزى وتجمعنا آصرات الرحم[2]
ولكن الفضل في أنه يصول بقرن وأني أجم[3]

واتفق أن حضر مجلس الصاحب فقال الخادم: المأموني الأبهري الشاعر. فقال الصاحب: الأقرن[4]أم الأجم؟ فاستحيا وخجل!

وحدث بديع الزمان الهمذاني قال لما أدخلني والدي إلى الصاحب: ووصلت إلى مجلسه واصلت الخدمة بتقبيل الارض. فقال لي الصاحب: يا بني اقعد كم تجد كأنك هدهد.

(١) «ابن عبد كان» هو محمد بن عبد كان. كان كاتباً للدولة الطولونية، وكان بليغاً مترسلاً فصيحاً وله ديوان رسائل.
(٢) الآصرة: الصلة والقرابة.
(٣) الأجم: الذي لاقرن له. وفي البيت تعريض ظاهر.
(٤) الأقرن: ذو القرن.

كان قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الأسدأباذي يكتب في عنوان كتابه إلى الصاحب «داعيه: عبد الجبار بن أحمد» ثم صار يكتب «وليه: عبد الجبار بن أحمد» ثم صار يكتب «عبد الجبار ابن أحمد» فقال الصاحب لندمائه: أظنه يؤول أمره إلى أن يكتب «الجبار».

وكما كان الصاحب متفرداً بالقدرة على هذه الدعابات الساخرة والفكاهات النادرة كان يعجبه أن يستمع إلى الطرفة والدعابة والسخرية وإن كانت السخرية من شخصه. وذكر الصاحب أن جماعة أخجلوه بدعاباتهم وحضور جوابهم، قال: منهم أبو الحسن البديهي، فإنه كان في نفر من جلسائي. فقلت له . وقد أكثر من أكل المشمش ــ لا تأكله فإنه يلطخ المعدة فقال: ما يعجبني من يطب على مائدته! قال: وأخجلني آخر إذ قال لي ــ وقد خرجت من دار السلطان وأنا ضجر من أمر عرض لي ــ من أين أقبلت يا مولانا: فقلت: من لعنة الله فقال: رد الله غربتك وأحسن على اساءته الأدب . فاستحسنت مداعبته فقلت: ليتك تحتي فقال مع ثلاثة أخر ــ يعني في الجنازة ــ فأخجلني!

وحدث الصاحب يوماً فقال: ما أفظعني[1] الا شاب ورد علينا أصبهان بغدادي فقصدني فأذنت له وكان عليه مرقعة وفي رجليه نعل طاق[2] فنظرت إلى صاحبي فقال له وهو يصعد إليّ: اخلع نعلك فقال: ولم؟ ولعلي أحتاج اليها بعد ساعة، قال الصاحب: فغلبني الضحك وقلت: أتراه يريد أن يصفعني؟.

---

(١)أفظعه الأمر: اشتدت شناعته وجاوز قدره وأفظعه الامر: وجده فظيعاً.

(٢) يقال: نعل طاق عطف بعضه على بعض.

ومثل هذه الأحاديث والطرائف لا تصدر عن جبار عنيد ولا عن مستبد طائش وإنما تصدر عن رجل أليف مألوف. يحب الناس ويحبه الناس كالصاحب الانسان الرقيق السمح المهذب الرفيق.

٤٤ ـ سماحة الصاحب

وسماحة الصاحب أشهر من أن يعرف بها ولقد أصبحت تلك السماحة مضرب الأمثال وحسبنا أن نذكر في هذا المجال قول أبي منصور الثعالبي في نعته ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والادب وجلالة شأنه في الجود والكرم وتفرده بغايات المحاسن وجمعه أشتات المفاخر.. وهو صدر المشرق وتاريخ المجد وغرة الزمان وينبوع العدل والاحسان ومن لا حرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق. وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء وحضرته محط رحالهم وسوسم فضلائهم ومسترعى آمالهم وأمواله مصروفة إليهم وصنائعه مقصورة عليهم وهمته في مجد يشيده وإنعام يجدده وفاضل يصطنعه[1]

والحقيقة أن هذه السماحة التي زينت مكارم الصاحب وجعلته مثالاً فذّاً فيها لم تكن خلقاً مكسوباً. بل كانت طبعاً فيه وجبلة ورثها عن أبويه اللذين رباه عليها وأخذاه بها وعلماه منذ حداثته أن يكون سمحاً معطاء فقد كان منذ الصغر إذا أراد المضي إلى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً في كل يوم ودرهماً وتقول له: تصدق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا

(١) يتيمة الدهر ١٨٨/٣.

دأبه في شبابه إلى أن كبر. وصار يقول للفراش كل ليلة اطرح تحت المطرح ديناراً ودرهماً لئلا ننساه فبقي على هذا مدة ثم إن الفراش في ليلة من الليالي نسي أن يطرح له الدرهم والدينار فانتبه وصلى وقلب المطرح ليأخذ الدرهم والدينار ففقدهما فتطير من ذلك وظن أنه لقرب أجله فقال للفراشيين: خذوا كل ما هنا من الفراش وأعطوه لأول فقير تلقونه حتى يكون كفارة لتأخير هذا. فلقوا أعمى هاشمياً على يد امرأة فقالوا له: تقبل هذا! فقال: ما هو؟ فقالوا مطرح ديباج ومخاد ديباج فأغمي عليه فأعلموا الصاحب بأمره فأحضره ورش عليه ماء فلما أفاق سأله فقال: اسألوا هذه المرأة إن لم تصدقوني فقالوا له: اشرح فقال: «أنا رجل شريف لي ابنة من هذه المرأة خطبها رجل فزوجناه ولي سنتان آخذ القدر الذي يفضل عن قوتنا أشتري لها به جهازاً. فلما كان البارحة قالت أمها اشتهيت مطرح ديباج ومخاد ديباج فقلت من أين لي ذلك؟ وجرى بيني وبينها خصومة إلى أن سألتها أن تأخذ بيدي وتخرجني حتى أمضي على وجهي فلما قال لي هؤلاء هذا الكلام حق لي أن يغشى علي.

فقال الصاحب: لا يكون الديباج إلا مع ما يليق به ثم اشترى له جهازاً يليق بذلك المطرح، وأحضر زوج الصبية ودفع إليه بضاعة سنية[1]

هكذا كان الصاحب في سماحته وهكذا كان عطاؤه مع من لا يعرف من الناس إنه ليعطي للعطاء ويهب للهبة ويجد في الهبة والعطاء متعةً وفألاً ويجد في المنع طيرة وشؤماً ومع ذلك تجد من أعدائه الذين لجوا في

(١) بغية الوعاة ١٩٦.

خصومتهم محاولات لتشويه هذا الخلق المطبوع غيظاً وحسداً حتى يقول بعضهم: عطاء ابن عباد لا يزيد على مائة درهم وثوب إلى خمسمائة وما يبلغ إلى الألف نادر وما يوفي على الألف بديع.

وحين تدمغهم الحقائق التي لا يستطيعون إنكارها يقولون «بلى قد ثار به ناس من عرض جاهه على السنين ما يزيد قدره على هذا بأضعاف وعدد هؤلاء قليل جداً وذلك بابتذال النفس وهتك الستر[1].

وهذا كلام مضطرب متناقض تطل منه الحقيقة السافرة على الرغم من الحسد والعداوة الظاهرة قال الصاحب: حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة وأنا إذ ذاك في ريعان شبابي فلما تقوض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الافطار نكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي واستقبحت الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله واعتقدت ألا أفل بما أفل به إذا قمت يوماً مقامه.

فكان الصاحب لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائناً من كان فلا يخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده وكانت داره لا تخلو في ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها وكانت صلاته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة[2] وكان ما يخرج لكافي الكفاة في السنة في وجوه البر والصدقات

(١) معجم الأدباء ٢٣٧/٦.

(٢) يتيمة الدهر ١٩٣/٣.

والمبرات وصلات الاشراف وأهل العلم والغرباء الزوار ومن يجري مجرى ذلك مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا وأجر الآخرة يزيد على مائة ألف دينار.

ونقل الثعالبي في اليتيمة ما رواه عون بن الحسين الهمذاني التميمي في قوله: كنت يوماً في خزانة الخلع للصاحب فرأيت في حسبانات كاتبها وكان حريق مبلغ عمائم الخز التي صارت تلك الشتوة في خلع الخدم والحاشية ثمانمائة وعشرين.

وكان يعجبه الخز ويأمر بالاستكثار منه في داره فنظر أبو القاسم الزعفراني يوماً إلى جميع من فيها من الخدم والحاشية عليهم الخزوز الفاخرة الملونة فاعتزل ناحية وأخذ يكتب شيئاً فسأل الصاحب عنه، فقيل إنه في مجلس كذا يكتب فقال علي به فاستمهل الزعفراني ريثما يكمل مكتوبه فأعجله الصاحب وأمر بأن يؤخذ ما في يده من الدرج فقام الزعفراني إليه وقال: أيد الله الصاحب:

اسمعه ممن قاله تزدد به عجباً فحسن الورد في أغصانه

فقال الصاحب: هات يا أبا القاسم فأنشده أبياتاً منها:

سواك يعد الغنى ما اقتنى ويأمره الحرص أن يخزنا
وأنت ابن عباد المرتجى تعد نوالك نيل المنى
وخيرك من باسط كفه وممن ثناها قريب الجنى
غمرت الورى بصنوف الندى فأصغر ما ملكوه الغنى
أيا من عطاياه تهدى الغنى إلى راحة من نأى أو دنا

كسوت المقيمين والزائرين كساً لم يخل مثلها ممكنا

وحاشية الدار يمشون في ضروب من الخز إلا أنا

ولست أذكر لي جارياً على المهد يحسن أن يحسنا

فقال الصاحب: قرأت في أخبار معن بن زائدة أن رجلاً قال له: أحملني أيها الأمير فأمر له بناقة وترس وبغلة وحمار وجارية ثم قال له: لو كنت أعلم أن الله تعالى خلق مركوباً غير هذه لحملتك عليه.. وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص ودراعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب ولو علمت لباساً آخر يتخذ من الخز لأعطيناكه ثم أمر بإدخاله الخزانة وحسب تلك الخلع عليه وتسليم ما فضل عن لبسه في الوقت إلى غُلامه(١).

كيف ينسب رجل مثل هذا إلى الشح والتقتير: أم كيف يجرؤ كاتب على التشكيك في سماحته ووفرة عطائه؟ ولقد ذكر هلال بن المعن بن ابراهيم الصابيء . كما سبق . أن الصاحب كان يراعى من بغداد والحرمين من أهل الشرف وشيوخ الكتاب والشعراء وأولاد الأدباء والزهاد والفقهاء بما يحمله إليهم في كل سنة مع الحاج على مقاديرهم ومنازلهم وكان يحمل إلى أبي اسحاق ابراهيم بن هلال خمسمائة دينار وإلى ألف درهم جبلية مع جعفر بن شعيب(٢).

---

(١) يتيمة الدهر ١٩١/٣.

(٢) معجم الأدباء ٢٠٠/٦.

٤٥ ـ العدل في الرضا والسخط

ومن أخلاق الصاحب البارزة وفضائله المميزة خلق الاعتدال وهو أساس الفضيلة وعنوان الكمال في الانسان الفاضل.

ويبدو هذا الخلق واضحاً في نواح كثيرة من حياته العامة وحياته الخاصة على السواء كما تبدو في مبدئه وفي عقيدته فقد علمه الحكيم وتحمل المسؤولية والترفع عن الخصام والتحلل من قيود العصبية ونسي نفسه وذاته وأجواءه وميوله حتى كان رجل الدولة أو رجل الجميع الذي يحمل قلباً واسعاً يتسع لأنصاره ولا يضيق عن خصومه يغفر الزلة ويتغافى عن الهفوة ويتماسك عند الأحداث التي تزلزل الرجال.

فلم نقرأ في حياته العامة في السياسة والحكم شيئاً يدل على تهوره أو اندفاعه مع كبير أو صغير ولم نقرأ كذلك شيئاً يدل على تهافته أو ضُراعته واستصغار نفسه. وقد رأينا أنه حين أغار مع فخر الدولة على الأهواز ليصلا منها إلى الأمل المرتقب في دار السلام دب السعاة بينهما وخوفوا فخر الدولة من أن يكون الصاحب يعمل لنفسه حتى يتصل بحكام بغداد فلما استدعاه فخر الدولة من طريقه إلى بغداد لبى ورجع إليه وشخص معه إلى الأهواز كما أراد وحارب في الأهواز وانتصر حتى تدخل فخر الدولة وقد أساء إلى جنده حتى اضطربوا عليه ولما أحس الصاحب بتغير فخر الدولة عليه لم يزد عن الامساك والتزام الصمت وكان في استطاعته وقد رأى من مولاه ما رأى أن ينجو بنفسه ذاهباً إلى بغداد. ولن يعدم وسيلة يتوسل بها إلى الخليفة أو إلى قلب السلطان أو أن يرجع إلى الري مغاضباً ولكنه بقي حيث هو مع مولاه حتى إذا رجع إليه مستشيراً وجد عنده الرأي الذي

يجمع شمل جنده ولو أن فخر الدولة لم يأخذ برأيه ولم يجد بماله. إلا أن رأي الصاحب كان الرأي الصائب وقد عرفت اصابته بعد تشتت جنده وخيبة حملته وتبدد الآمال.

ولعل الاعتدال وضبط النفس كان من أهم ما رفع الصاحب في نفوس أمرائه ودعاهم إلى استبقائه والحرص عليه ولهذا عمر في الوزارة تلك المدة الطويلة التي تزيد على ثمانية عشر عاماً وهي مدة قل أن عمرها وزير في وزارة ولا سيما في ذلك الزمان الثائر المضطرب ولقد تعاقب عليه أميران أحدهما فخر الدولة، الذي لم يحتمل أخويه ولم يحتملاه. فثار عليهما وظل مقصياً ثائراً يحارب أخويه عضد الدولة ومؤيد الدولة ويحاربانه حتى توفي مؤيد الدولة فاستدعاه الصاحب وسلم إليه السلطان واعتذر الصاحب عن مشاركته في تحمل مسؤولية الحكم، لولا أن ألح عليه فقبل المضي في طريقه محتفظاً بكرامته وترفعه.

ويبدو أثر الاعتدال في سياسته في ذلك الرضا الشامل الذي أبدته الرعية طوال مدة وزارته ولم نقرأ في تاريخه شيئاً عن عنف أو عقوبة صارمة أنزلها بأحد مرؤوسيه أو رعاياه جزاء عن مخالفة أو محاولة للخروج. ولقد كان الصاحب يغضب إذا استغضب ولكنه كان سريع الرجوع ومن شأن المتهورين الاندفاع وحدة الانفعال في الرضا وفي السخط على السواء.

أما رحمة الصاحب ورفقه بالناس وتواضعه للعلماء والشعراء والأدباء ونادرته اللطيفة وفكاهته الطريفة فإن كل ذلك لم يكن في حقيقته تصاغراً أو شعوراً بالهوان، بقدر ما كان مظهراً من مظاهر الرغبة في تحطيم الكبرياء وكسر حدة المنصب وشهوة السلطان التي يكثر أن تخدع كثيراً

من رجال الحكم والسلطان فلم يستسلم الصاحب لتلك الشهوة التي تشير في نفوس أصحابها الحرص على الاستعلاء حتى يركبوا مركب البطش والاستبداد ومن هنا كان التوسط والاعتدال فكان بين الحكام مثلاً بعيد المنال وكان في العلماء والأدباء عالماً وأديباً يخلع رداء السلطان الذي تنقبض له النفوس ثم يقول لجلسائه كلمته المذكورة: «نحن بالنهار سلطان وبالليل اخوان» ويقول للقادم عليه إذا كان من أهل العلم: «يا أخي تكلم واستأنس واقترح وانبسط ولا ترع إن سلطان العلم فوق سلطان الولاية فليفرخ روعك ولينعم وقل ما شئت وأبصر ما أردت فلست تجد عندنا إلا الانصاف والاسعاف» ويقول لأبي واقد الكرابيسي ــ وقد حضر مجلسه وهو لا يعرفه . يا أخ انبسط واستأنس وتكلم فلك منا جانب وطيء وشراب مريء.

وذلك إن كان يدل على شيء فإنما يدل على الطبع الأصيل الذي يملك صاحبه زمام نفسه فلا يسرف بها متعالياً ولا ينحط بها متداعياً ولكنها تتصرف في كل موقف بما يتطلبه ومع كل انسان بما يناسبه وهذا هو سر احترامه وهو أيضاً سر محبته ولقد مازحه مولاه فخر الدولة ذات مرة بكلمة رأى الصاحب أنها نابية فما كان أسرعه إلى القول: بنا من الجد ما لا تفرغ معه للهزل وغادر مجلسه غاضباً وانكمش عنه حتى استرضاه مقدراً ما ينبغي لمثله من التوقير والاحترام.

وهنالك مظهر آخر لتمكن خلق الاعتدال من نفسه وتسلطه على قوله وفعله وعقيدته ومذهبه فقد رأينا أنه كان يرى رأي المعتزلة أصحاب العدل والتوحيد الذين كانوا يقولون بخلق القرآن كما سنعرف ذلك عند دراسة

علم الصاحب وكان يناظر لتأييد قوله بما يستطيع من الأدلة والبراهين ولكنه لم يحاول مرة أن يكره أحداً على القول بما يقول ولا أن ينال من مخالفي مذهبه أو رافضي قوله أو أن يفعل ما فعل خلفاء بني العباس ووزرائهم من أخذ معارضيهم للفكرة نفسها بالعسف والظلم والاستبداد وتنحيتهم عن وظائفهم إن كانوا من أصحاب المناصب والوظائف والمناصب وكأنهم كافرون بكل القيم منكرون لجميع العقائد من أجل خلاف في الرأي حول بدعة جديدة أو فتنة جديدة مزقت وحدة المسلمين وعذب بسببها كثير من أئمتهم وعلمائهم وفقهائهم وأفاضلهم.

أما الصاحب ـــ وقد كان يقول بما يقول به خلفاء بني العباس ووزرائهم فإنه لم يحاول أن يسلك مسلكهم أو أن يذهب مذهبهم في التعصب لرأيه أو أخذ مخالفيه بمثل تلك القسوة والصرامة بل كان يدلي بحجته ويدع لمخالفيه أن يدلوا بحجتهم ولا يحاول أن يحملهم على اعتناق رأيه أو أن يصيبهم بسوء بل كان على العكس من ذلك يفتح لهم صدره ويوسع لهم في مجلسه وينبسط معهم تاركاً لكل إنسان أن يقول بما يرى وأن يعتقد ما يرضى.

والمعروف عن الصاحب أنه كان شيعياً إمامياً من الاثني عشرية ولكن يبدو أن الشيعية كانت مذهبه الرسمي المعروف وإن كان له شعر كثير يدل على حبه لأهل بيت رسول الله حباً ملك عليه قلبه وظهر أثر هذا الحب الشديد في كثير من شعره ملتمساً بهم الشفاعة والزلفى إلى الله كقوله مخاطباً آل رسول الله ﷺ:

إن ابن عباد استجار بكم ... فما يخاف الليوث في الخيس[1]
كونوا أيا سادتي وسائله ... يفسح له الله في الفراديس
كم مدحة فيكم يحبرها ... كأنها حلة الطواويس
وهذه كم يقول قارئها ... قد نشر الدر في القراطيس
يملك رق القريض قائلها ... ملك سليمان عرش بلقيس
بلغه الله ما يؤمله ... حتى يزور الامام في طوس

وقوله راجياً بحبهم الخلود في الجنان:

نبي والوصي وسيدان ... وزين العابدين وباقران
وموس والرضا والفاضلان ... بهم أرجو خلودي في الجنان

وقوله في ايثار بني السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ:

قد قلت قولاً صادقاً بيناً ... وليست النفس به آثمه
لكل شيء فاضل جوهر ... وجوهر الناس بنو فاطمه

إلى أمثلة كثيرة من هذا الشعر الذي فاض به بحر الصاحب في حب رسول الله وأولاده ولا يختلف مسلمان أيّاً كان مذهب كل منهما ونحلته في حب رسول الله وآله والولاء لهم ولغيرهم من ذوي السابقة والجهاد في سبيل الله من السابقين الأولين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله فهذا قدر مشترك بين المسلمين جميعاً سواء أكانوا من أهل السنة أم كانوا من أهل الشيعة.

(١) الخيس بالكسر موضع الأسد.

ومع هذا الحب والولاء الذي يشارك الصاحب فيه المسلمون جميعاً كان الصاحب معتزلياً وهنالك اختلافات كثيرة بين الشيعة والمعتزلة والأدلة على كونه معتزلياً كثيرة منها تعصبه للجاحظ الذي كان من أئمة المعتزلة كما هو معلوم وقد رد الشريف المرتضى في كتابه «الانصاف» على الصاحب ابن عباد في تعصبه للجاحظ ونسب الشريف الصاحب الى الاعتزال وقال فخر الدولة للصاحب «بلغني أنك تقول: المذهب الاعتزال» وعده صاحب كتاب «فرج الهموم» من المعتزلة ويظهر ذلك من رسالته المسماة بالابانة فإن ظاهره فيها انكار النص على أمير المؤمنين مع القول بأفضليته وهذا مذهب جماعة من المعتزلة ويحكى عن الصلاح الصفدي أنه قال: ومن المعتزلة الصاحب ابن عباد والزمخشري والفراء النحوي[1]. وقال أبو حيان التوحيدي «والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابته مهجنة بطرائقهم ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب[2]. ما لنا نذهب بعيداً في اثبات اعتزاله وهو القائل بما يقول به المعتزلة من الاختيار وإنكار الجبر حتى قال فيه السلامي الشاعر يهجوه:

يا ابن عباد بن عبا	س بن عبد الله مرها
تنكر الجبر وأخرجـ	ت من دنياك كرها

وهو القائل بما يقول به المعتزلة من خلق القرآن؟ وهو من المعتزلة الذين يسمون أنفسهم «أصحاب العدل والتوحيد» كما قال هو عن نفسه:

العدل والتوحيد مذهبي الذي	يزهى به الايمان والإسلام

(١) راجع أعيان الشيعة: ٣٦٧/١١و٣٦٨.
(٢) الامتاع والمؤانسة ٥٤/١.

وولايتي لمحمد ولآله ديني وحصن الدين ليس يرام
فهناك جبل الله مضفور القوى وعليه من سر القضاء ختام

وكما كرر ذلك كثيراً في شعره: فلم تبق شبهة في اعتناقه آراء المعتزلة.

وإلى جانب هذا وذاك ذكر التوحيدي في الامتاع أنه كان «يتشيع لمذهب أبي حنيفة ومقالة الزيدية»[1]

ولا شك أن هذه الاقوال كلها تدعو إلى العجب وتستثير الدهش فكيف يكون الصاحب جامعاً لهذه المذاهب؟ فيكون من الشيعة الامامية الاثني عشرية ومن الشيعة الزيدية ومن المعتزلة حنفياً أو شافعياً؟!

وليس من حقنا أن ننفي اعتناق الصاحب ابن عباد مذهباً من هذه المذاهب أمام هذه الأخبار والنصوص المتواترة وأمام كلام الصاحب نفسه وكلام معاصريه. وليس من حقنا كذلك أمام هذه الأسباب أن نقول إن الصاحب كان له مذهباً واحداً بعينه يتمسك به وينكر ما عداه!

فهل معنى ذلك أن الصاحب كان يجمع هذه المذاهب كلها أو كانت تجتمع فيه مع ما قد يكون من أوجه الخلاف بينها؟!

إن رأيي الذي أطمئن إليه أن ذلك ليس مستحيلاً كما يخيل لبعض الأذهان التي تصر على أن هناك اختلافاً يستحيل معه الاتفاق ذلك أن الاختلاف بين هذه المذاهب مهما يكن مداه ليس إلا اختلافاً في الفروع أما الأصول فإنها واحدة كما قال الله تعالى: «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» ولا تختلف هذه المذاهب إلا بمقدار ما يختلف الأخ مع

(١) المصدر السابق ٥٥/١. ياقوت ١٧٥/٦.

أخيه الشقيق في بعض الظواهر العرضية التي لا تنفي وحدة أصلها وتلك الاختلافات العرضية إنما جسمتها الأهواء والنزوات التي لا يمكن أن تمس جوهر العقيدة بحال من الأحوال وإن كانت قد أحدثت على مر الزمان آلاماً وجراحاً وأفسدت بين الأشقاء ووسعت الهوة ومزقت وشائج الوحدة وروابط الاخاء وقد استطاع الصاحب ابن عباد أن يكون كذلك لأن واجبه الأسمى كمشارك في تدبير الدولة وسياسة أمورها ورعاية رعاياها تقتضي أن يكون كذلك فهو شيعي في ولائه لآل رسول الله وهو معتزلي في تفكيره وهو يتشيع لمذهب أبي حنيفة أو لمذهب الشافعي السنيين أو بعبارة أخرى «هو مسلم» يأخذ بأجود ما يرى أو ما يطمئن إليه عقله من هذا ومن ذاك فليس مقلداً لمذهب من المذاهب وإنما هو آخذ بأسباب القوة كما يراها في كل مذهب من المذاهب ولا خير في شرعة الانصاف أن يكون على هذا النحو من السلوك فإن أمامه الأصول التي لا يتمارى فيها مسلمان من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ومعه عقله يهديه وقلبه الذي يسير وراء عقله.

هذا ما أستطيع أن أطمئن إليه في تفسير هذه الأخبار وتعليل تلك النصوص.

وقد استطاع الصاحب أن يضرب أروع الأمثلة الايجابية في ايمانه بما آمن وفي أخذه بما أخذ فنراه يؤلف كتاباً يعد في طليعة ما يذكر من كتبه وآثاره وأعني به كتابه الذي سماه «كتاب الامامة» الذي يذكر فيه فضائل الإمام علي كرم الله وجهه ويثبت بأدلته وبراهينه صحة إمامة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه، أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين وقد ذكر هذا الكتاب أعلاماً يعتد بهم

وفي مقدمتهم محمد بن اسحاق النديم، الذي عاصر الصاحب نفسه وتوفي في السنة التي توفي فيها الصاحب (سنة ٣٨٥هـ) وقد قال في الفهرست في كتاب الصاحب «كتاب الامامة يذكر فيه تفضيل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وتثبيت إمامة من تقدمه»[١] وكذلك القاضي أحمد الشهير بابن خلكان الذي ذكر في كتب الصاحب «وكتاب الامامة يذكر فيه فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويثبت إمامة من تقدمه»[٢] وكذلك ياقوت الذي ذكر أن هذا الكتاب «في تفضيل علي بن أبي طالب وتصحيح امامة من تقدمه»[٣] وعلى هذا فليس هنالك شك في صحة هذا الكتاب ولا خلاف في موضوعه وهذا أكبر دليل على ما قررناه من سعة أفق الرجل وأخذه بما يراه وبما يقتنع به وينفي عنه رذيلة التعصب الذي يعمي عن الحق ويفتح للأهواء سبيلها إلى الضلال. وقد كان هذا في حقيقته مؤكداً لما قلناه من قبل عن فضيلة الاعتدال التي كان يتميز بها الصاحب ابن عباد بين فضائله الكثيرة ومواهبه الفضيلة أيضاً موقفه من القاضي «عبد الجبار ابن أحمد» وهو سني[٤] معتزلي فقد أعجب بعلمه وفضله حين رآه في بغداد. فلما عاد الصاحب إلى الري استدعاه وكرمه وقدمه ثم ولاه قضاء الري ثم أضاف إليه بعد ذلك قضاء طبرستان وجرجان وما يليهما من الاعمال غير متعصب لرأي ولا متشيع لمذهب ولا خاضع لهوى من الأهواء إلا هوى الحق، ومنهج العدل.

(١) الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم ١٩٤.

(٢) وفيات الأعيان ٢/٢٢٥.

(٣) معجم الأدباء ٦/٢٦٠.

(٤) أردنا بالسنية معناها العام لا معناها الذي يقابل الاعتزال.

وأخيرا فلعل فيما أبرزناه عن أخلاق الصاحب يلقي ضوءاً على ما كان يتمتع به من الفضائل النفسية التي رفعته وخلدت اسمه في سجل الخالدين ولعله يعين على تعرف العوامل والمواهب التي تظافرت على تكوين شخصية فذة من أفذاذ التاريخ العربي والتاريخ الاسلامي.

٤٦ ـ الصاحب الأديب:

كان الصاحب أحد أعيان الأدباء الذين ملكوا زمام هذا الفن وبرزوا فيه وبه عرفوا وذاع صيتهم بين الناس وقد فاق في أدبه وفي تنوع فنونه أكثر أدباء عصره كتابة وشعراً.

ولن نظلم الحقيقة إذا قلنا إن ابن عباد كان آدب من عرفنا من الوزراء الذين سما بهم هذا الفن الرفيع إلى أرفع مكان رسمي في الدولة بعد منصب الخلافة والملك وهو منصب الوزارة.

وقد شهد للصاحب بذلك الفضل أكثر الناس عداوة له وألدهم خصومة وأشرهم حقداً عليه وفي مقدمتهم أبو حيان التوحيدي الذي كتب بعد أن فرغ من الاعتذار من التصدي لثلبه أن أول ما يذكر من ذلك ما يدل به على سعة كلامه وفصاحة لسانه وقوة جأشه، وشدة منته[1]. وقال أبو منصور الثعالبي في نعته: «همته في مجد يشيده وإنعام يجدده وفاضل يصطنعه وكلام حسن يصنعه أو يسمعه. ولما كان نادرة عطارد في البلاغة وواسطة عقد الدهر في السماحة جلب إليه من الآفاق وأقاصي البلاد كل

(١) المنة بضم الميم وتشديد النون القدرة والقوة.

خطاب جزل وقول فصل وصارت حضرته مشرعاً لروائع الكلام وبدائع الافهام وثمار الخواطر ومجلسه مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر الشرائع. فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر ويكاد يدخل في حد الاعجاز وسار كلامه مسير الشمس ونظم ناحيتي الشرق والغرب[1]. وقال فيه الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي: «وهذا الصاحب ممن اشتركت الألسن في وصفه وسلم إليه أهل البلاغة ما عاناه من نثره ونظمه وحسن ترتيبه ورصفه[2]. ورثاه الشريف أبو الحسن الرضي الموسوي النقيب بقصيدة طويلة من عيون المراثي قال فيها:

واهاً على الأقلام بعدك إنها	لم ترض بعد بنان كفك الا
أفقدن منك شجاع كل بلاغة	إن قال جلى في المقال وجالا
من لو يشا طعن العدا برؤوسها	وأثار من جريانها قسطالا[3]

ووصفه محمد بن اسحاق النديم بأنه «أوحد زمانه وفريد عصره في البلاغة والفصاحة والشعر[4].

ولقد كان الصاحب أديباً برز في فنون الأدب فكان كاتباً من كبار الكتاب وشاعراً من فحول الشعراء وناقداً عارفاً بأصول الأدب وقلما رأينا

(١) يتيمة الدهر ١٨٩/٣.

(٢) انباء الرواة على انباه النحاة ٢٠٢/١.

(٣) القسطل والقسطل والقسطلان: الغبار

(٤) الفهرست: ص ١٦٤.

أديباً اجتمع له من أسباب القدرة والتمكن من فنون القول كما رأينا الصاحب الذي زاحم كل مختص في فنه حتى حاذاه وفاقه.

ومرجع ذلك الطبع الموهوب والأدب المكسوب والاساتذة العارفون الذين جلس إليهم وتلقى عنهم أصول الفن مع رغبة شديدة في المعرفة وحرص على الاطلاع الواسع العميق على غرر الشعر وعيون النثر حتى بلغ من ذلك الغاية..

وقد كان من أساتذته علماء يشار إليهم بالبنان في تنوع المعرفة ويعترف لهم بالتبحر في الأدب وفي مقدمتهم أحمد بن فارس الذي وصف بأنه من أعيان أهل العلم وأفراد الدهر وأنه يجمع اتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء وهو صاحب الكتب البديعة والرسائل المفيدة والاشعار الجيدة ولعل الصاحب ابن عباد كان أشبه تلاميذه به في العلم وإن فاقه في فن الكتابة وفن الشعر.

٤٧ ـ الصاحب الناثر:
لفظه ومعناه ـ عصر الصنعة.

وفي طليعة أساتذته الذين أخذ عنهم أصول فن الكتابة أبو الفضل محمد بن الحسين الذي اشتهر بابن العميد والذي وصفه الثعالبي بأنه الأوحد في العصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة والضارب في الآداب بالسهام الفائزة والآخذ من العلوم بالاطراف القوية وكان يدعى الجاحظ الاخير، والاستاذ، والرئيس يضرب به المثل في

البلاغة وينتهى إليه في الاشارة بالفصاحة والبراعة مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها إلى براعة المعاني ونفاستها وما أحسن ما قال له الصاحب . وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها .: «بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد» وكان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد.

ويتمثل في هذا العصر الذي أنجب أبا الفضل بن العميد وتلميذه الصاحب ابن عباد ازدهار الحضارة ووضوح أثرها في فن الكتابة التي أخذ أسلوبها يميل الى الزخرف والتأنق والصنعة فامتازت كتابة الرسائل في هذا العصر امتيازاً ظاهراً بلزوم السجع القصير الفقرات لاسيما الرسائل السلطانية وباستعمال الجناس وبعض أنواع البديع وباستخدام معاني الشعر وألفاظه فيها بدل الأبيات السائرة والحكم المأثورة حتى كادت الرسائل تكون شعراً منثوراً وازدادت فيها عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء والتهويل بشأنهم والاقتباس من كلام البلغاء وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعراء. ولا عجب من ذلك اذ كان جميع كتاب دول الشرق الذين اشتهرت على أيديهم هذه الطريقة من الفرس وهم أميل الناس الى العلية اللفظية والغلو في عبارات التمجيد والتعظيم. ومع هذا لم تفت كتابة هؤلاء جزالة اللفظ وانتقاؤه وحسن استعماله في مواضعه وجمال أسلوبه.

وكان من الممكن أن تكون هذه الطريقة غير منهكة لقوى البلاغة لو لم يستشر داؤها ويسوء استعمالها بعد عصر الذين انتحلوها اذ لم يكن من بعدهم على مثل سنتهم في الاحاطة باللغة وعلومها وتربية ملكتها فأخطؤوا التقليد في اللفظ كما حرموا الاجادة في المعنى.

وكان ابن العميد أقلهم التزاماً للمسجوع وأقربهم إلى انتحال المطبوع وكان كثيراً ما يجعل فقر رسائله أبياتاً منثورة ويلمح فيها إلى الامثال المشهورة والأحاديث المأثورة حتى انطبعت كتابته على التمثيل والحكمة فكان منها فصول سائرة ومعان نادرة[1]. ثم يكون الصاحب ابن عباد ثاني ابن العميد في حلبته وأبلغ من سلك طريقته غير أنه أولع بالجناس والسجع وكان تياهاً شديد العجب بنفسه.

والحقيقة أن الصاحب أسرف في ولوعه بالسجع إسرافاً عجيباً حتى رنق هذا السجع المتتابع رونق كلامه وحسن نظامه والتأنق في الصياغة وتخير الألفاظ وجودة التأليف وحسن التنسيق والرصف كل ذلك مطلوب بل هو ضروري في الفن الأدبي لأنه الذي يميز فنية الأديب صاحب القلم أو صاحب اللسان من غيره من الذين يصطلنعون اللغة ويعبرون بها عن أغراضهم ومقاصدهم. فقوة العبارة ومتانة سبكها وجودة رصفها وتخير ألفاظها دليل على تلك الفنية التي ننشدها في الأعمال الأدبية وفي الجناس والسجع والازدواج موسيقى تأنس بها النفس وتطرب لها الأذن ولكن تتابع النغم الرتيب، يشعر بالتكلف ومجافاة الطبع لأن الفن جمال. وليس جمال الفن الأدبي محصوراً في هذا الضرب من التنميق والتنسيق حتى يفرغ الأديب ما في كنانته فيه فيطغى على ما يتطلب في العمل الأدبي من فخامة المعاني وروعة الخيال. وقد نجد في كلام الصاحب بل في كثير من كلامه ما شئنا من وفرة المعنى وروعة الخيال غير أن تلك الموسيقى المترادفة في الأسلوب تطغى على ما تتضمنه العبارة من أسباب

(١) تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي للأستاذ أحمد الاسكندري ص ٢١٧ .

القوة في المعاني وأصالتها إذا كانت ذات قوة وذات أصالة فليس الفن الأدبي موسيقى فقط وإن كانت الموسيقى مطلوبة فيه ولكنها الموسيقى المطبوعة التي لا تشعر بالتكلف والتعمل في طلبها ولا تتغلب على سائر الخصائص المميزة لفن الأدب.

ومن هنا أساء سجع الصاحب إلى أدبه وشوهت صناعته محاسن فنه وكان في هذه الإساءة والتشويه إماماً للذين كانوا بعده في عصور الظلمة والجهل والذين صار أدبهم كالطلاء على غير بناء وكالصدى الذي لا يرجع إلى أصل. وهي على كل حال طبيعة العصر التي تؤثر في كل شيء فيه.

ولقد وجد أعداء الصاحب وحساده في ذلك الغلو مجالاً للنيل من أدبه والغض من طبعه فنسبوه إلى التكلف ووصفه بعضهم بالرقاعة.

وأكبر الظن أن الذي دفع الصاحب إلى هذا المنهج غير ما ذكرنا من طبيعة عصره وأسلوب الذين سبقوه من أساتذته إدلاله بثقافته اللغوية وتلك الصفة تقتضي ثقافة لغوية واسعة ومعرفة بالألفاظ المتسقة والمتجانسة والمتوازنة والقدرة البارعة على تأليفها وذلك ما لا يحذقه كثير من أرباب الصناعة.

٤٨ ـ ارتجاله الكلام البديع:

ولكن المزية التي توافرت للصاحب ولم تتوافر لغيره هي تلك القدرة الفائقة على هذا التأليف المصنوع من غير روية ولا تحضير ولا تحبير.

حتى أصبحت تلك الصنعة طبعاً فيه وحتى أصبح غالب كلامه المرتجل يجري هذا المجرى من الكلام الأنيق المسجوع فتراه يقول لأحد رجاله الذين يتولون الكتابة والحساب ولم يعجب الصاحب ما كتبوه وما حسبوه: «أهذا حساب أهذا كتاب؟ أهذا تحرير؟ أهذا تقرير؟ أهذا تفصيل؟ أهذا تحصيل؟ والله لولا أني ربيتك في داري وشغلت بتخريجك ليلي ونهاري ولك حرمة الصبا ويلزمني رعاية الأبا لأطعمتك هذا الطومار(١) وأحرقتك بالنفط والقار وأدبت بك كل كاتب وحاسب وجعلتك مثلة لكل شاهد وغائب أمثلي يموه عليه ويطمع فيما لديه، وأنا خلقت الحسابة والكتابة، والله ما أنام ليلة الا وأحصل في نفسي ارتفاع العراق ودخل الآفاق. أغرك مني أني أجررت رسنك(٢) وأخفيت قبيحك وأبديت حسنك؟ غير هذا الذي رفعت واعرف قبل وبعد ما صنعت واعلم أنك من الآخرة قد رجعت، فزد في صلاتك وصدقتك».

وجرى يوماً في مجلسه ذكر أبي سعيد الأبهري المتكلم فقال: لعن الله ذاك الملعون المأبون المأفون جاءني بوجه مكلح وأنف مفلطح ورأس مسطح ولسان مكبح فكلمني في مسألة الأصلح فقلت له: اعزب عليك لعنة الله لقيت الأبرح الذي يلزم ولا يبرح».

وكثيراً ما كان يدعوه تطلب السجع إلى استعمال الغريب الموحش المتنافر القبيح وقد شتم يوماً رجلاً فقال «لعن الله هذا الأهوج الاعوج

(١) الطومار: الصحيفة والجمع طوامير.

(٢) الرسن: الحبل وهذا كقولهم: حبلك على غاربك. يريد تركتك لنفسك.

الأفلج الأفحج[1] الذي إذا قام تخلج[2] وإذا مشى تدحرج وإذا عدا تفجفج[3]. ودخل يوماً دار الإمارة الفيرزان المجوسي فقال له في شيء خاطبه فيه: «إنما أنت مخش مجش لا تهش ولا تبش ولا تمتش[4] فقال الفيرزان «أيها الصاحب برئت من النار إن كنت أدري ما تقول إن كان رأيك أن تشتمني فقل ما شئت بعد أن أعلم فإن العرض لك والنفس فداء لست من الزنج ولا البربر كلمنا على العادة التي عليها العمل والله ما هذا من لغة آبائك الفرس ولا من أهل دينك من أهل السواد وقد خالطنا الناس وما سمعنا منهم هذا النمط» فقام الصاحب مغضباً.

وقال ابن عباد لشيخ من خراسان في شيء جرى، «والله لولا شيء لقطعتك تقطيعاً وبضعتك تبضيعاً ووزعتك توزيعاً ومزعتك تمزيعاً وجزعتك تجزيعاً وأدخلتك في خزائنك . ثم وقف ساعة ثم قال، . جميعاً» قال: أبو حيان في وصف هذه الحكاية وهو راويها وملح هذه الحكاية نبتز في الكتابة وطربها ينقص في الرواية دون مشاهدة الحال وسماع اللفظ وملاحة الشكل في التحرك والتثني والترنح والتهادي ومد اليد ولي العنق وهز الرأس والأكتاف واستعمال الأعضاء والمفاصل.

وكان كثير من سجع الصاحب يدعو إلى العجب ويستوجب الضحك حقاً فقد قال يوماً عن أبي الفضل بن العميد أنه كان، سيداً لم يشق غبارنا

(١) الافحج وهو تداني صدور القدمين وتباعد العقبين.

(٢) أي اضطراب.

(٣) أي انفرج ما بين رجليه عند المشي وهو أقبح من الفحج.

(٤) أي لا ينال منك غرض.

ولا أدرك شوارنا[1] ولا مسح عذارنا ولا عرف غرارنا لا في علم الدين ولا فيما يرجع إلى نفس المسلمين فأما ابنه يعني أبا الفتح، فقد عرفتم قدره في هذا وفي غيره طياس، قلاش[2] ليس عنده إلا قاش[3] وقماش مثل ابن عياش والهروي الحواشي وولدت والشعرى في طالعي. ولولا دقيقة لأدركت النبوة وقد أدركت النبوة إذ قمت بالذب عنها والنصرة لها فمن ذا يجارينا أو يبارينا ويغارينا[4] أو يمارينا ويشارينا[5].

ومما يدل على ولوع ابن عباد بالسجع ومجاوزته الحد فيه بالإفراط قوله يوماً «حدثني ابن ناش وكان من سادة الناش» جعل السين شيناً ومر في هذا الحديث. قال أبو حيان إن الصاحب سئل عن هذا فقال: هذه لغة وكذب وكان كذوباً[6] قال: وكان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد. قلت لابن المسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة ويحتاج من أجلها إلى عزم ثقيل وكلفة صعبة وتجشم أمور وركوب أهوال لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها بل يأتي بها ويستعملها ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها.ثم يقول: بالله يا أصحابنا حدثوني: أهذا

(١) يقال: للدابة شوار اذا عرضتها للبيع بإجرائها أمام المشتري.

(٢) الطياش الطائش والقلاش: المحتال.

(٣) القاش اسم للقماش كأنه سمي باسم صوته.

(٤) يغارينا من غاراة اذا لج معه في الخصومة.

(٥) المشاراة: المجادلة.

(٦) معجم الأدباء ٦/٢١٣ .

عقل رئيس؟ أم بلاغة كاتب؟ أم كلام متماسك؟ لم تجنون به؟ وتتهالكون عليه؟ وتغيظلون أهل الفضل به؟ هل هناك إلا الجد الذي يرفع من هو أنزل منه ويوقع من هو أرفع منه ولقد حدثت هذا الحديث أبا السلم الشاعر فأنشدني الشاعر:

سبحان من أنزل الدنيا منازلها ... وميز الناس مغموراً ومرموقا
فعاقل فطن أعيت مذاهبه ... وجاهل خرف تلقاه مرزوقا
كأنه من خليج البحر مغترف ... ولم يكن بارتزاق القوت محقوقا
هذا الذي ترك الالباب حائرة ... وصير العاقل النحرير زنديقا

والحقيقة أنه لو كان الذي رواه أبو حيان من كلام الصاحب من أمثال ما مر صحيحاً لكان الحكم الذي أصدره عليه صحيحاً ولكانت الأوصاف القبيحة التي وصفه بها من الرقاعة والجنون وغيرهما صحيحة كذلك.

٤٩ ـ احتمال الافتعال من أبي حيان:

أما أن يكون أبو حيان قد افتعل هذه الأمثال ليشوه تاريخ الرجل ويزري بأدبه وفنه فعلم ذلك عند الله وحسابه عند الله لأننا لم نقرأ هذه المثل إلا في حكايات هو راويها وأمامنا من كتب عنه الفصول الطوال كأبي منصور الثعالبي الذي كتب في الصاحب وفي أخباره ونوادره وفي مجالسه وشعره ونثره قدراً كبيراً[1] لا نقرأ فيه مثل هذا الأدب الغث الذي رواه أبو حيان

(١) استغرق الجزء الذي كتبه الثعالبي عن الصاحب في «يتيمة الدهر» نحو مائة صفحة كبيرة ١٨٨ ـ ٢٨٩ من الجزء الثالث. مطبعة حجازي بتحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد.

وكأن أبا حيان كان ولوعاً بمثل تلك الطرائف يرويها أو يؤلفها بقلمه البارع وخياله الخصب ويتم رواياته برواية أخرى لا تقل عن أمثال ما مر طرافة فيذكر أنه بلغ من ركاكة الصاحب أنه كان عنده أبو طالب العلوي فكان إذا سمع منه كلاماً يسجع فيه وخبراً ينمقه ويرويه يبلق[1]عينيه وينشر منخريه ويرى أنه قد لحقه غشي حتى يرش على وجهه ماء الورد فإذا أفاق قيل: ما أصابك؟ وما عراك؟ ما الذي نالك وتغشاك؟ فيقول: ما زال كلام مولاي يروقني ويؤنقني[2] حتى فارقني لبي وزايلني عقلي وتراخت مفاصلي وتخاذل قلبي وذهل ذهني وحيل بيني وبين رشدي.فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك وينتفش ويضحك عجباً وجهلاً ثم يأمر بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بني أبيه وعمه. ثم يسوق أبو حيان بعد هذه المقدمات نتيجة يقره عليها كل من يصدق كلامه وهي «من ينخدع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه وبالصبيان الضعاف أمثل[3] أم ترى أن ابن عباد كان يتفكه أو يتندر بمثل هذه الأقوال في مجالسه التي كانت تتسع لآيات الجد كما كانت لا تضيق بفنون من الفكاهة والمجون؟ ولم يكن يدري أن هنالك حساداً يحصون عليه كلماته ويجعلون من سيئاته حسنات؟كل ذلك تتسع له أبواب الافتراض وتنبسط أمامه وجوه الاحتمال ولكن هل كان هذا التكلف البادي في مثل ما سقناه هو طبيعة أدب الصاحب؟ أو أنه وحده يمثل خصائص أسلوبه في الكتابة؟.

(١) يقال بلق الباب وأبلقه اذا فتحه كله

(٢) يؤنقني: يعجبني.

(٣) معجم الادباء ٢٣٨/٦

٥٠ ـ نماذج من أدبه الكتابي:

أدب الرسائل.

إن بين أيدينا كثيراً من نثر الصاحب في رسائله ومقاماته وهي ترقى به وبفنه الكتابي إلى الذروة والسنام في عالم الفن الكتابي والكلامي. وهاك شيئاً من نمط كتابته لتقف بنفسك على حظ الصاحب من الأدب وتنزله ما هو أهل له من رفيع المنزلة بين الأدباء وحملة الأقلام. وهو فصل من رسالة بعث بها إلى ابن العميد جواباً عن كتابه إليه في وصف البحر:

«وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادراً عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه وعاين من مراكبه ورآه من طاعة آلاته للرياح، كيف أدارتها واستجابة أدواتها لها متى نادتها وركوب الناس أشباحها والخوف بمرأى ومسمع والمنون بمرقب، ومطلع والدهر بين أخذ وترك والأرواح بين نجاة وهلك، إذا فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر وإذا لاحت غرر المطالب الكثيرة حبب إليهم الغرر[1] وعرفت من تمنيه كوني عند ذلك بحضرته وحصولي على مساعدته. ومن رأى بحر الأستاذ كيف يزخر بالفضل وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم لم يعتب على الدهر فيما يفيته من منظر البحر ولا فضيلة عندي أعظم من اكبار الأستاذ لأحواله واستعظامه لأهواله كما لا شيء أبلغ في مفاخره وأنفس في جواهره من وصف الأستاذ له فإني قرآن منه الماء السلسال لا الزلزال[2] والسحر الحرام لا الحلال وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بفكره سعة صدره فلو فعل ذلك لرأى البحر

(١) الغرر بفتح الغين الخطر.

(٢) يقال ماء سلسل وسلسال وسلاسل سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه.

وشلاً[١] لا يفضل عن التبرض[٢] وثمداً[٣] لا يكثر عن الترشف:

وكم من جبال جئت تشهد أنك الـ جبال وبحر شاهد أنك البحر

وكتب في تنوير باكورة خلاف قد نور وأهدى قضيباً منوراً منه:

«لتنوير الخلاف فضائل لا تحصى ومحاسن تطول أن تستقصي منها أنه أول ثغر يبسم عنه الربيع ويضحك ودر يعقد على القضبان ويسبك ولتمايله اذكار بقدود الأحباب وتهييج لسواكن الاطراب. وحمل إلي قضيب منه ورداته متعادلة ولذاته متقابلة فأنفذته مع رقعتي هذه إليك وسألت الله أن يعيده ألف حول عليك وقلت:

وقضيب من الخلاف بديع	مستخص بأحسن الترصيع
قد نعى شدة الشتاء إلينا	وسعى في جلاء وجه الربيع
وحكى من أحب عرفاً وظرفاً	واهتزازاً يشير ماء ضلوعي
رقة ما نظمت نحو بديع الـ	مجد حاكى الربيع من صنيعي

وكتب رقعة مع أقلام أهداها وأكبر الظن أنه أهداها إلى أستاذه أبي الفضل بن العميد: «قد خدمت دواة مولاي بأقلام تتخفف بأنامله وتتحمل نفحات فواضله وتأنقت في بريها فأتت كمناقير الحمام واعتدال الهام خمسة منها مصرية مقومة عليها حلل مهمة وعشرة منها بيض كأياديه وأيام مؤمليه والله يديم له مواد نعمته ويوفقني لشرائط خدمته».

(١) الوشل الماء القليل يتحلب من جبل او صخرة ولا يتصل قطره.

(٢) وبرض الماء خرج وهو قليل والتبرض أخذ القليل.

(٣) الثمد بسكون الميم وفتحها، الـ.ء القليل.

وهذه رسالة كتبها إلى أبي علي الحسن بن أحمد في شأن أبي عبدالله محمد بن حامد قال الثعالبي: وسمعت الأمير أبا الفضل عبيد الله ابن أحمد يسردها فزادني جريها على لسانه وصدورها عن فمه إعجاباً بها وهي:

«كتابي هذا وقد أرخى الليل سدوله وسحب الظلام ذيوله ونحن على الرحيل غداً إن شاء الله إذا مد الصباح غرره قبل أن يسبغ حجوله ولولا ذلك لأطلته كوقوف الحجيج على المشاعر ولم أقتصر منه على زاد المسافر فإن المتحمل له وسيع الحقوق لدي حقيق أن أتعب له خاطري ويدي وهو أبو عبدالله الحامدي أعزه الله تعالى كان وافانا مع ذلك الشيخ الشهير أبي سعيد الشبيبي السعيد رفع الله منازله وقتل قاتله يكتب له فآنسنا بفضله وأنسنا الخير من عقله. فلما فجع بتلك الصحبة وبما كان له فيها من القربة لم يرض غير بابي مشرعاً وغير جنابي مرتعاً وقطع إلي الطريق الشاق مؤكداً حقاً لا يشق غباره ولا ينسى على الزمان ذماره. وكنت على جناح النهضة التي لم يستقر نواها ولم تبن حصباها ولم تلق عصاها فأمرج البحر المبتدأ الامر القريب العهد بوطأة الدهر حامل عليه بالمركب الوعر.

«فرددته إليك يا سيدي لتسهل عليه حجابك وتمهد له جنابك وتترصد له عملاً خفيف الثقل ندي الظل فإذا اتفق عرضته عليه ثم فوضته اليه. وهو إلى أن يتفق ذاك ضيفي وعليك قراه وعندك مربعه ومشتاه. ويريد اشتغالاً بالعلم ليزيده في الاستقلال إلى أن يأتيه إن شاء الله خبرنا في الاستقرار ثم له الخيار إن شاء أقام على ما وليته وإن شاء لحق بنا ناشراً ما أوليته وقد وقعت

له إلى فلان بما يعينه على بعض الانتظار إلى أن تختار له . أيدك الله . كل الاختيار فأوعز إلي بتعجيله واكفني شغل القلب بهذا الحر الذي أفردني بتأميله إن شاء الله تعالى».

وهذه رقعة كتبها إلى القاضي أبي بشر الفضل بن محمد الجرجاني عند وروده باب الري وافداً عليه:

تحدثت الركاب بسير اروى إلى بلد حططت به خيامي
فكدت أطير من شوقي إليها بقادمة كقادمة الحمام

أفحق ما قيل أمر القادم؟ أم ظن كأماني الحالم؟ لا والله بل هو درك العيان، وأنه ونيل المنى سيان فمرحباً أيها القاضي براحلتك ورحلك بل أهلاً بك وبكافة أهلك ويا سرعة ما فاح نسيم مسراك ووجدنا ريح يوسف من رياك فحث المطي تزل غلتي بسقياك. وتزح علتي بلقياك ونص على يوم الوصول لنجعله عيداً مشرفاً ونتخذه موسماً ومعرفاً ورد الغلام أسرع من رجع الكلام فقد أمرته أن يطير على جناح نسر: وأن يترك الصبا في عقال وأسر!

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدتك نحوي يا زياد بن عامر
أصائل قرب أرتجي أن أنالها بلقياك قدر زحزحن حر الهواجر

وكتب رقعة إلى صديق أهدى إليه مصحفاً: البر . أدام الله الشيخ . أنواع تطول به أبواع وتقصر عنه أبواع فإن يكن فيها ما هو أكرم منصباً وأشرف منسباً فتحفة الشيخ إذ أهدى ما لا تشاكله النعم ولا تعادله القيم كتاب الله

وبيانه وكلامه وفرقانه ووحيه وتنزيله وهداه وسبيله ومعجز رسول الله ﷺ ودليله. طبع دون معارضته على الشفاه وختم على الخواطر والأفواه فقصر عنه الثقلان[1] وبقي ما بقي الملوان[2] لائح سراجه واضح منهاجه منير دليله عميق تأويله يقصم كل شيطان مريد ويذل كل جبار عنيد وفضائل القرآن لا تحصى في ألف قران فأصف الخط الذي بهر الطرف وفاق الوصف وجمع صحة الأقسام وزاد في نخوة الأقلام بل أصفه بترك الوصف فأخباره آثاره وعينه فرارة، وحقاً أقول اني لا أحسب أحداً ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت، وابتدع في استكتابها ما ابتدعت وإن هذا المصحف لزائد على جميعها زيادة الحج على العمرة.

٥١ – أدب العهود:

كانت رسائل الدولة ذوات البال تصدر من ديوان الرسائل وإليه ترد ولذلك كان لا يتولاه من رجال الدولة إلا فحول البلاغة وأهل العلم والأدب والمعرفة بضروب السياسة ومراسيم الملوك وكان النظر في ديوان الرسائل غالباً للوزير إما مستقلاً به أو مستنيباً عنه لموضعه عن ضبط أسرار الدولة وحفظ كرامتها وتفخيم شأنها في أعين الرعية والملوك فكان وزراء الامراء هم شيوخ الكتاب وأساتذتهم.

وقد تعددت موضوعات الكتابة بتعدد أعمال الدواوين الكثيرة والرسوم العديدة التي استحدثت في الدولة من كتابة بيعة لخليفة أو ولي عهد أو

(١) الثقلان: الانس والجن.

(٢) الملوان الليل والنهار.

عهد لوالٍ أو قاضي أو منشور بإعلان أمر سياسي أو ديني وبعض هذه الأمور ككتابة عهد الوالي أو القاضي كان يكتب في عصر الخلفاء الراشدين وفي عصر بني أمية غير أنه كان يكتب موجزاً ساذجاً يقتصر فيه على نص التولية وموجبها بإيجاز. أما في عصر الدولة العباسية فقد كان كل نوع من الانواع يكتب بغاية الاسهاب والاطناب فالبيعة كانت تشحن بالايمان المحرجة التي تفنن الكتاب والفقهاء في اختراعها وكان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الامة وما يجب للأمة على الخليفة وعهد الوالي أو القاضي يفصل فيه الصفات الحسنة التي رغبت الخليفة في اختياره وعدد البلدان والنواحي التي يتولاها ونوع العمل الذي يعمله من صلاة أو خراج أو حرب أو قضاء والوصايا بالأمور التي يجب أن يأخذ بها الرعية وغير ذلك مما لم يكن له أصل أو كان له أصل غير مستوفي[1].

تلك هي الرسائل الديوانية التي برزت بين فنون الكتابة الانسانية، بل إن هذه الرسائل الديوانية هي التي أبرزت عدداً كبيراً من رجال القلم في أدبنا العربي، وعلى قدر خطورة هذه الرسائل وموضوعاتها كان خطر كتابها وعظم شأنهم في الحياة العامة بين مدبري شؤون الدولة ومصرفي أمورها وكذلك في حياتهم الخاصة إذ ترتب على مزاولتهم هذا الفن بروز شخصياتهم وتقدمهم على أكثر طبقات المجتمع.

ولقد كان الصاحب من أولئك الوزراء الكتاب الذين ارتقى بهم القلم إلى درجة التدبير فلما وصلوا إلى درجة التدبير والتصريف لم ينسوا

(١)تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي للإسكندري ص٣٣.

ماضيهم الفني في صناعة القلم بل اتخذوا من هذه الصناعة ما يدعم الوظيفة والمنصب. وهكذا خدم القلم الدولة فدبر أمورها وحل مشاكلها، وخدمت الدولة اصحاب القلم فبلغوا أقصى ما يتمناه أصحاب الصناعة الفنية.

وقد قرأنا بعض النماذج الرسائل الاخوانية التي دبجتها براعة الصاحب في الوفاء وفي الوصف وفي الشفاعة وفي الشكر وفي بث الأشواق وهي رسائل تفيض بشرح العواطف الإنسانية وتعبر عن المشاعر التي يجدها الكتاب نحو مظاهر الحياة ونحو الأحياء.

وبقي أن نذكر شيئاً من رسائله الديوانية في ناحية واحدة ولكنها أهم نواحيها الكثيرة ودواعيها المتعددة وتلك هي «العهود» التي كان يكتبها الصاحب عن الخليفة أو عن السلطان في إسناد بعض أعمال الدولة إلى بعض الرجال التي اجتمعت فيهم الصفات التي ترشحهم لولاية تلك الأعمال.

وسنرى الصاحب في كتابة هذه «العهود» كما عهدناه في سائر كتاباته الاخوانية أو غيرها رجل الصنعة البليغ ولكن هذه الصنعة التي أصبحت طبعاً عند الصاحب حتى في كلامه الجاري وفي حديثه المرسل تتوارى هذه الصنعة وكأنه لم تكن صنعة إمام فيض المعاني البارزة والأفكار الواضحة والتعاليم الرشيدة فلا يبدو أبداً أن في هذه العهود عبارة مقسورة أو لفظاً مجتلباً وإنما هي العبارة الناصحة والمتحملة لأجود المعاني وأوضحها. وقد استجمعت تلك العهود سائر الخلال المستحبة والمثل المتمناة في شاغلي تلك المناصب، ومن تسند إليهم تلك الأعمال، بحيث يعز على الباحث أن يجد نقصاً إذا طلبه أو يشعر بخطإ فيما ينبغي

أن يكون كما تصوره الصاحب من المثل والفضائل والحقوق والتكاليف والآداب التي تتطلبها الانسانية وتقتضيها رعاية العمل والنهوض به على أكمل وجه وتلك ميزة كبرى للعهود التي كتبها الصاحب ففيها دليل عقله وحسن تقديره وفيها أروع المثل بناء الامة الفاضلة والدولة الناهضة.

ونسرع بك إلى نموذج من هذه «العهود» كتبه الصاحب إلى قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد حين عينه في ولاية القضاء في جرجان وطبرستان وما يليهما من أعمال بالاضافة إلى قضاء الري الذي كان يتولاه من قبل وقد أشرنا إلى فاتحة هذا العهد عند كلامنا على مدى وفاء هذا القاضي لذكر ولي نعمته الصاحب ابن عباد ونذكر بقيته فيما يأتي:

٥٢ - تقوى الله:

«أمره بتقوى الله مفتاح الخيرات المنجية ومغلاق الشهوات المردية الداعية من استشعرها لباساً وجعلها قاعدة وأساساً إلى أجدى الأقوال وأزكى الأفعال وأرضى الأحوال الكاسية من اطرحها وراء ظهره وحرفها عن سبيله وآمره خسران الصفقة ديناً ودنياً وانحلال الربقة أولى وأخرى، لا تقبل منه حسناته ولا تكفر عنه سيئاته يوم تسود وجوه المجرمين وتبيض وجوه المؤمنين ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون﴾.

(٢) كتاب الله:

وأمره بأن يجعل مصباحه في ظلم الامور واستنجاحه في الحكم بين

الجمهور كتاب الله الذي أنزله وبينه وفصله وأودعه ما قدم وما حدث ونصبه حجة على من ورث وورث لا تنزف بحاره ولا تبلغ أغواره ولا تكسف أضوائه ولا تخلف أنواؤه[1] ولا تلتبس مذاهبه ولا تنقضي عجائبه قاطعة أحكامه ساطعة أعلامه كاف الزامه. إليه يرجع كل ذاهب وبه يقمع كل ناكب ليس عن محجته معدل ولا بمستبدل بحجته مستبدل ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾.

(٣) سنة رسول الله:

«وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله ﷺ وعلى آله تالية كتاب الله في الاقتداء وجارية مجراه في الاقتفاء اذ كانت العروة التي لا تنفصم والعمدة التي لا تنثلم والصراط الذي لا يميل والبرهان الذي لا يستحيل قد رتبها الله بياناً لما أشكل ولساناً لما أعضل وعياناً لمن غاب وإيقافاً لمن ارتاب فالمتمسك بها ناج يوم الخيفة، راج للدرجات المنيفة والمخل بها مدخول دينه خفيفةً موازينه ومن يرد الله به خيراً يهيىء له من أمره رشداً.

(٤) اجماع المسلمين:

«وأمره بأن يتلقى الاجماع بالاتباع ويحترس معه من الابتداع والاختراع فقد خص الله بفضيلته أمتنا دون الأمم الماضية، وشرفهم به على القرون

---

(١) الانواء جمع نوء وهو سقوط نجم من المنازل في الغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من الشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً وكانت العرب تضيف الامطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها وقيل الى الطالع منها لأنه في سلطانه.

الخالية وهو حبل من الله ممدود وكنف في دين الله ممهود لا تضطرب أسبابه ولا يهتك حجابه ولا تعمل الآراء مع وجوده ولا تسوغ العبرة[1] بعد معقوده ﴿ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾.

(٥) القياس والاجتهاد:

«وأمره إذا عرض له ما لم يفصح به الكتاب نصاً وإسماعاً وان لم يفرط فيه تضميناً وإيداعاً ولم تأت به السنة كشفاً وتنويهاً وإن اشتملت عليه فحوى وتنبيهاً ولم يسبق فيه اتفاق ولا يسع من بعده افتراق، أن ينظر نظراً يفعمه ويصابر الفكر فيه فلا يسأمه فإن الله اذا علم ان الحق بغيته والصلاح نيته أدى به إلى ما يريد ووفقه فلا يضل ولا يعيد ورفده بصائب الخواطر وهيأ له أجلى الاشباه والنظائر ولم يبهم سبيل الرشاد دونه وجعله بلطفه من الذين يستنبطونه[2].

«وأمره بأن يكون اختياره إذا اختار وإيثاره إذا اعتمد الإيثار من أقوال السلف المشهورين وفقهاء الأمة المذكورين رحمة الله عليهم أجمعين لا يعرج بالمذاهب الشاذة ولا يتقبلها ولا يترخص في الأقوال الشاردة ولا يتحملها ويصدر أحكامه عن قول شهير وبيان مستنير واستبصار واضح

---

(١) العبرة: الاعتبار وفي مصطلح الفقهاء القياس.

(٢) يشير هنا الى الآية الكريمة، ﴿ولو ردوه الى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾.

المنهاج واعتبار متلألىء السراج ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

(٦) الشورى:

«وأمره بالاستظهار على أحكامه بالمشورة والمباحثة لأولي المعارف الموفورة من الفقهاء الذين جعلهم الله للأحكام قنية وللإسلام حلية. فإنه وإن كان موصوفاً بالاستقلال فما أحد خلق للكمال وقد جعل الله في وفور العدة مزية لم يجعلها للوحدة وعرف في الاستمداد والاستكثار فضيلة لم يوجدها في الاستبداد والاستئثار ثم له الإمضاء إذا استشار والقضاء إذا تخير واستخار فقد أفصح منطوق الذكر بقوله تعالى ﴿وشاورهم في الأمر﴾.

(٧) أخلاق القاضي ومسؤوليته:

«وأمره بأن يهذب نفسه قبل أن يهذب عمله ويؤدب عادته قبل أن يؤدب من قبله ويروض أخلاقه على الحلم فإنه أحمد ما اعتاد والصبر فإنه أفضل ما ارتاد لئلا يقضي في حال قلق أو غلق أوغيظ أو حنق[1] أو ضجر أو ملال أو حرج أو كلال بل ينظر بين الخصوم وقد سد خصاصته[2] وقضى عامة إربه[3] وخاصته واستظهر بملك نفسه وإربه وعرك الساخط والمغايظ بجنبه يؤدي فرض الله في عظيم ما تطوقه من الفروج والدماء

---

(١) الحنق: الغيظ.

(٢) الخصاصة: الفقر.

(٣) الأدب، بكسر فسكون هنا العقل.

ويحتذي أمر الله في جسيم ما اعتنقه من حقوق الدهماء[1] فإن الله سائله يوم تشهد الأشهاد ويحشر العباد عن قليل ذلك وكثيره ومحاسبة على صغير ذلك وكبيره ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين».

(٨) العدل بين الخصوم:

«وأمره بأن يعدل بين الخصوم في مجالس قضائه ويعمهم بحسن استماعه وإصغائه ولا يعجل بمن قد غشيته هيبة الحكم فيحصر[2] ويحرج ولا من ملكته روعة الخصم فيحسر[3] ويتلجلج ولا يقسم لواحد منهما في لفظه اذا لفظ ولحظه إذا لحظ إلا مثل الذي يقسمه لصاحبه ويوجبه لمنازعه ومجاذبه لئلا يطمع قوي في الظلام ضعيف أو يجزع مشروف من اهتضام شريف[4] فالحق أكبر من كل ذي سحل وثروة والدين أعظم من كل ذي منزلةٍ وحظوة ولله على كل قاض فيما يخفيه فيبطنه أو يبديه فيعلنه رقيب لا تلحقه غفلة وحسيب لا تفوته خصلة ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾.

---

(١) الدهماء عامة الناس.

(٢) الحصر: العي والعجز عن الكلام.

(٣) يحسر يعجز.

(٤) مأخوذ من رسالة عمر بن الخطاب الى أبي موسى الاشعري في القضاء من قوله «آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك.

(٩) اختيار الاعوان:

«وأمره أن يتخير كفاته وخلفاءه وكتابه وأمناءه فمن نصح وعف وصلح وكف أقره وفسح له عمره ومن صدف عن التورع والظلف[١] وانحرف إلى الجشع والنطف[٢] قدم عزله وحسم عن المسلمين كله[٣] فالمرء مسؤول عن بطانته كما هو مسؤول عن أمانته ﴿يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

(١٠) الفحص عن الشهود:

وأمره بأن يتصفح الشهود لتصفح من عدالة المسلمين أثر إليه من الجرح وسلامتهم في الدين أوقع لديه من القدح فالمسلمون بظواهرهم عدول إلا من ثبت منه فسوق أو غلول[٤] وأن يخبر أحوالهم بعد ألا يقبل ظنيناً[٥] ولا عبداً ولا من أقام عليه القذف حداً ويستشفهم فيما يصدرون ويوردون ويتحملون ويؤدون لئلاً يقدم أحدهم في شهادته على لبس أو يهجم به ضعف درايته على زيادة أو نقص فما كل الشهود يؤتى من سوء السريرة وإنما يؤتون من سوء المعرفة والبصيرة ولذلك فضل من فضله علمه وقدم من قدمه فهمه ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾؟

---

(١) الظلف الخشونة والمراد: الزهد.

(٢) النطف الشر والفساد والعيب.

(٣) الكل . بالفتح . المصيبة.

(٤) الغلول، الخيانة.

(٥) الظنين: المتهم.

(١١) أموال اليتامى:

«وأمره بأن يحتاط على مال اليتيم بالاحتياط الشديد فلا يعول في حفظه الا على الأمين السديد ويوكل به عيناً من ملاحظته وسيداً من حفظه ومحافظته ليؤمن فيه الأكل بالباطل والتعريض لخبث المطاعم والمآكل ولينفق منه عليه إنفاقاً وسطاً في التقدير بين التبذير والتقتير إلى أن يبلغ الحلم والنكاح ويستكمل الرشد والصلاح فيحصل ماله في يديه ويشهد به عليه ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً﴾.

(١٢) المواريث:

«وأمره بأن يضع المواريث إذا رفعت إليه مواضعها من الاستحقاق والاستيجاب ويوصلها إلى أربابها بالأنساب والأسباب على فرائض الله فيما سمى وأسهم وأبقى بعد ما قسم وأن يجري ذوي الأرحام على ما رآه أكثر الأمة وقال به جمهور الأئمة من إيجاب التوريث عند فقد ذوي التعصيب فلو لم يكن في ذلك إلا حراسة التراث عن معارضة عمال المعاون[١] والأحداث لوجب تغليب من هذه فتياه وألحق فيها غرضه ومرماه فكيف وقد تلي في نص كلام الله ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾.

---

(١) المعاون: الشرطة.

(١٣) الرجوع الى الحق:

«وأمره ألا ينسخ حكم القضاة قبله إذا كان مما يسوغ الرأي مثله فلو نقض الاجتهاد بالاجتهاد لما استقرت أحكام قضاة البلاد. وإن هو وجد من ذلك ما خالف إجماع الحجة، وخرج عن اتفاق الأمة أتى فيه ما يلزمه تلافيه فالباطل أولى بأن يدفع والحق أحق أن يتبع.

(١٤) زواج الأيامى:

وأمره بتزويج الأيامى[1] اللاتي ولايتهن إليه وعقدتهن بيديه متخير الأكفاء وطالباً في الصدقات[2] الوفاء عالماً بأن تقديم ذلك أدعى الى العفاف وأرجى للكفاف في وأقرب الى العدل وأبعد من العضل[3] وقد قال الحكيم الرحيم في القرآن المبين «وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم ودمائكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم».

(١٥) رعاية الأوقاف:

«وأمره بأن ينصب للوقوف من يحسن وقوفه عليها وقيامه ويصدق اشتغاله بها واهتمامه لئلا تبور أصولها بالضياع أن تفوق حقوقها باقتطاع ولتجري أقسامها على ذللها وتصرف في وجوهها وسبلها وتحمى عن

---

(١) الأيامى الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء الواحد منها (أيم) سواء كان تزوج من قبل أو لم يتزوج، وامرأة أيم بكراً كانت أو ثيباً.

(٢) الصدقات جمع صدقة . بفتح فضم والصداق . بفتح الصاد وكسرها . مهر المرأة.

(٣) العضل، المنع من التزويج.

مكائد من يسعى في نقضها برأي من آراء المجتهدين ويتأنى لحلها بفتوى من فتاوى المختلفين ﴿فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾.

(١٦) انظار المعسرين:

«وأمره اذا ثبت عنده الاعسار أن ينظر ويمهل ويؤخر ويؤجل فان الله فرق بين ذي المتربة[١] والمقدرة، فقال «وإن كان ذو عسرة منظرة الى ميسرة».

(١٧) ضرب السكك (العملة):

«وأمره بأن ينصب لحفظ السكك في دور الضرب أمناء يحرسون العيار، ويعرفون السبك والاعتبار ليكون ما يطبع على الامام[٢] المعلوم والمثال المرسوم فلا يستطيع من أراد دغلاً[٣] أن يوقع خللاً فتجري المعاملات على السداد وتحفظ النقود عن الفساد ﴿والله خير حافظ وهو أرحم الراحمين﴾.

(١٨) درء الحدود بالشبهات:

«وأمره إذا رفع إليه ما يوجب حدا أو قطعاً أو قتلاً أو جلداً أن يأخذ بأبعد المذاهب من اباحة ظهر المسلم فإنه الحمى وإراقة دمه فإنه الحرمة

(١) المتربة: السكنة والفاقة، ومسكين ذو متربة أي لاصق بالتراب.

(٢) المقصود بالامام المعلوم النموذج الذي يضرب النقود على مثاله.

(٣) الدغل . بفتحتين . الفساد مثل الدخل.

العظمى وإبانة أعضائه فالأصل الحظر ولا اطلاق ما استعجم الأمر وأن يجرد عند ذلك المسألة عن البينات ويأخذ بالسنة في درء الحدود بالشبهات فإن وضح له ما يوجب اقامة الحد أنهاه ونفذه بحكم الله ولم تأخذه رأفة في دين الله.

هذا عهدنا اليك وعهد الله به عليك لم نألك فيه تذكيراً وإن كنت به بصيراً ولم ندخر عنك بياناً وإن كنت تقتله علماً وإيقافاً. فاستخر الله المغيث بلغك سدداً ويؤتك ما بقيت رشدا إليه تفويضنا فيما نبدىء ونعيد وعليه تعويلنا فيما نعزم ونريد وهو حسبنا ونعم الوكيل».

تلك صورة تخيرناها من العهود المستفيضة التي كتبها الصاحب وإذا صرفنا النظر عن صياغتها الفائقة وأسلوبها الممتاز فإنا نجد فيها دقة وأحكاماً لما تضمنته من الأوامر والتوجيهات والأحكام التي تتصل بمصالح الرعية وتدل على معرفة الصاحب وفقهه فقد ذكر فيها أصول التشريع ومصادر الأحكام وهي: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين والاجتهاد والقياس فيما لا نص عليه من كتاب أو سنة أو إجماع على مثله مما له نص من الكتاب والسنة والاجماع. كما ذكر ضرورة الشورى فيما يحتاج إليها وحذر من الاستبداد واطاعة الهوى ونبه القاضي إلى رياضة نفسه وتهذيبها والعدل بين الخصوم والعناية بتخير أعوانه وأبنائه والفحص عن الشهود والاستيثاق من عدالتهم ورعاية اليتامى واتباع أحكام المواريث وعدم تقضي الاحكام إلا إذا ثبت خطؤها وتزويج الأيامى ورعاية

الاوقاف والتخفيف على المعسرين ودرء الحدود بالشبهات وكلها تتصل بأعمال القاضي وما ينظر فيه.

وهذا العهد كما رأينا طابعه الإيجاز وإن بدا طويلاً فلكثرة ما عرض له من الواجبات كما رأينا استشهاده في أكثر مسائله بآيات من كتاب الله يدعم بها أوامره ويؤيد بها نصيحته وما أجدر الأدباء بهذه الثقافة التي تعرفهم مناهج الحق وما أجدر من يتولون الفصل بين الناس بتدبر أمثال هذا العهد الفريد.

وإنك لتقرأ كثيراً من أمثال هذا الأدب العالي والنمط الفريد في مجموعة رسائله التي كتبها في أغراض مختلفة وكلها تشهد بالأصالة والقدرة على الإبداع[1].

فقرات من كلامه تجري مجرى الأمثال ـ توقيعاته:

وللصاحب غرر من فقر ألفاظ تجري مجرى الأمثال. منها ما أخرج الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد في كتابه الذي سماه «ملح الخواطر وسبح الجواهر» ومنها مما أخرجه الثعالبي».

من استماح البحر الغرب استخرج اللؤلؤ الرطب. من طالت يده بالمواهب امتدت اليه ألسنة المطالب. من كفر النعمة استوجب النقمة.

(١) طبعت هذه الرسائل في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٧ وصححها وقدم لها المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور شوقي ضيف.

من نبت لحمه على الحرام لم يحصده غير الحسام. من غرته أيام السلامة حدثته ألسن الندامة. رب لطائف أقوال تنوب عن وظائف أموال. الصدر يطفح بما جمعه وكل إناء مؤد ما أودعه. الشمس قد تغيب ثم تشرق والروض قد يذبل ثم يورق. العلم بالتذكر والجهل بالتناكر.

الضمائر الصحاح أبلغ من الألسنة الفصاح. الآمال ممدودة والعواري مردودة.

متن السيف لين ولكن حده خشن ومتن الحية ألين ونابها أخشن.

بعض الحلم مزلة. وبعض الاستقامة مزلة. قد ينبح الكلب القمر، فليلقم النابح الحجر.

ربما كان الإقرار بالقصور أنطق من لسان الشكور. ربما كان الإمساك عن الإطالة أوضح في الإبانة والدلالة.

تلقي الإحسان بالجحود تعريض النعم للشرود. ما كل طالب حق يعطاه ولا كل شائم مزن يسقاه ان الأحداث لا رياضة لهم بتدبير الحوادث. من ثقلت عليه النعمة خف وزنه ومن استمرت به الغرة طال حزنه.

وللصاحب من التوقيعات . وهي التعليقات الموجزة الحكيمة التي اشتهر بها بعض الخلفاء والوزراء والكتاب ـــ التي كان يكتبها عفو الخاطر تعليقاً على بعض ما كان يرفع إليه ما يشهد على علو كعبه في البلاغة وبعضها كان يقتبسه من كتاب الله ومنها:

(١) كتب إنسان رقعة وقد أغار فيها على رسائله وسرق جملة من ألفاظه فوقع الصاحب فيها «هذه بضاعتنا ردت إلينا».

(٢) ووقع في رقعة استحسنها ﴿أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون﴾.

(٣) ووقع في رقعة أبي محمد الخازن وكان ذهب مغاضباً كتب إليه يستأذنه في معاودة حضرته ﴿ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت﴾؟

(٤) وكتب بعض العمال رقعة إلى الصاحب في التماس شغل وفي الرقعة «إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالي ببعض أشغاله. فوقع الصاحب تحتها، من كتب اشغالي لا يصلح لأشغالي»!

(٥) ورفع الضرابون من دار الضرب قصة إلى الصاحب في ظلامة لهم مترجمة بالضرابين فوقع تحتها «في حديد بارد».

(٦) ووقع على رقعة لأبي الحسن الشقيق البلخي «من نظر لدينه نظرنا لدنياه فإن آثرت العدل والتوحيد بسطنا لك الفضل والتمهيد وإن أقمت على الجبر فليس لكسرك من جبر».

(٧) ورفع إليه بعض منمي الأخبار أن رجلاً ممن ينطوي على غير الجميل يدخل داره في الناس ثم يتلوم على استراق السمع. فوقع «دارنا هذه خان يدخلها من وفى ومن خان».

(٨) وكان مكي المنشد قد انتاب الصاحب بجرجان وكان قديم الخدمة له فأساء أدبه غير مرة فأمر الصاحب بحبسه فحبس في دار الضرب

وهي بجواره بجرجان فاتفق أنه صعد يوماً سطح داره لحاجة في نفسه وأشرف على دار الضرب فلما رآه مكي نادى بأعلى صوته «فاطلع فرآه في سواء الجحيم» فضحك الصاحب وقال ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ ثم أمر بإطلاقه. وهذا الخبر وإن لم يكن من التوقيعات المكتوبة إلا أن له ما للتوقيع المكتوب من حضور الذهن وسرعة الجواب!

٥٣ ـ طبيعة شعر الصاحب:

والتأمل فيما أثر الصاحب في فن الشعر يهدي إلى أن السمة المميزة له والغالبة عليه هي سمة الترف وترى هذه السمة واضحة في الفنون والموضوعات التي عالجها كما تراها في الأخيلة والمعاني التي صورها وفي الألفاظ التي تخيرها والتراكيب التي ألفها.

ويتجلى كل ذلك في وصف متع الحياة ومباهج النفس التي كانت تنعم بها تلك الطبقة من حكام ذلك الزمان الذين كانوا يسكنون شامخ الأنس والطرب ويملكون أسباب الترغيب والترهيب ويقدرون على الإبعاد والتقريب والوصول والجفاء.

فشعر الصاحب في جملته يمثل في فنونه ومعانيه شعر الكبراء أو شعر الكبرياء الذي قد يسمى شعر الخاصة ولكنها ليست خاصة الفن التي كثيراً ما تكون في متناول الطبقات المتفاوتة في المجتمع وإنما هي خاصة الحياة وخاصة المنصب والجاه.

وإذا ما حاولنا أن نلتمس للصاحب شبيهاً في فنه فإننا نجد هذا الشبيه

في عبد الله بن المعتز. صاح ابن الرومي في وجه من أنشده بعض شعره «ويحك» إنما يصف هذا ماعون بيته.

ولو خلي بين الصاحب وبين شاعريته حتى تصل إلى مداها وتستوفي غايتها وتبوح بمكنونها لكان إلى الشريف الرضي أقرب ولكان فنه بفن الشريف أشبه. ولكن الوقت والفراغ كانا في يد الشريف بقدر ما كان الصاحب في يد الدولة وفي حوزة المنصب.

كانت جل الأغراض التي عالجها الصاحب في شعره تدور حول تلك الحياة الخصبة التي كان يحياها وتصف ألوان المتعة التي كان يجدها في الطبيعة أو في الحياة والأحياء وهي متعة لم تكن مستعصية عليه بل كانت طوع يمينه وبين يديه ولكنها النفس التي كانت تطلب من هذه المتعة المزيد. وأكثر هذا الشعر يصور الرجل المقصود الذي تتطلع إليه الآمال ولم يكن يصور الرجل المتطلع إلى الآمال فقد بلغ غايته الرفيعة كما يصور الرجل المتفضل الذي يجود بماله كما يجود بأدبه ويؤدب بهذا الأدب كما يؤدب بالحرمان من عطائه المال.

ولكل هذا نرى أن المديح في شعر الصاحب قليل ولا يتوجه فيه إلا إلى ولي من أولياء نعمته وهم قليل.. ومنه قوله في عضد الدولة:

همام رأى الدنيا سواماً فحاطها ... ليالي في غبر الزمان وقور
ولم يخطب الدنيا احتفالاً بقدرها ... فموقعها من راحتيه يسير
ولكن له طبع إلى الخير سابق ... ورأي بأبناء الرجال بصير
وإن لم يلاحظهم بعين حمية ... فتلك أمور لا تزال تمور

وقوله في عضد الدولة من قصيدة أخرى:

سعود بحار المشتري في طريقها ... ولا تتأتى في حساب المنجم
وكم عالم أحييت من بعد عالم ... على حين صاروا كالهشيم المحطم
فوالله لولا الله قال لك الورى ... مقال النصارى في المسيح ابن مريم
محامد لو فضت ففاضت على الورى ... لما أبصرت عيناك وجه مذمم
وكلا ولكن لو حظوا بزكاتها ... لما سمعت أذناك ذكر ملوم
ولو قلت إن الله لم يخلق الورى ... لغيرك لم أحرج ولم أتأثم

وقوله:

يا أيها الملك الذي كل الورى ... قسمان بين رجائه وحذاره
فمناصح قد فاز سهم طلابه ... ومراهن قد جال قدح بواره
هذي بخارى تشتكي ألم الصدى ... وتقول قولاً نبت في إخباره
ماذا عليه لو يهم بعرصة ... فأكون بعض بلاده ودياره

وكتب إلى مؤيد الدولة أبي منصور:

سعادة ما نالها قط واحد ... يحوزها المولى الهمام المعتمد
مؤيد الدولة وابن ركنها ... وابن أخي معزّها أخو العضد

وقال في فخر الدولة لما بنى قصره بجرجان:

يا بانياً للقصر بل للعلا ... همك والفرقد سيان
لم تبن هذا القصر بل صغته ... تاجاً على مفرق جرجان

وقصرك المبني من قبله ملكك والله هو الباني
فاقبل نثار العبد بل نظمه فإنه والدر مثلان

وهذا الشعر كما نرى وإن كان في المديح إلا أننا نرى الصاحب من خلاله لا يزال متماسكاً فلا نقرأ فيه ذلة الخضوع والضراعة التي نقرؤها في أكثر ما نقرأ من شعر المديح للمتكسبين من الشعراء الذين كانوا ينسون أنفسهم بل يهبطون بها إلى حضيض الاستعطاف والمذلة والإسفاف وأولئك الثلاثة كما رأينا من أبناء بويه وهم أولياء نعمته الذين احتضنوه وارتقوا به في دولتهم إلى منصب الوزارة.

ولا يخدعنا عن هذه الحقيقة ما في هذا الشعر من المبالغات التي نأباها ونرفضها، فإنها من أقاويل الشعراء ولا تظهر فيها شخصية الصاحب التي تلصقها به وتجعلها علماً عليه. بل إن من المستطاع أن تنسب الى غيره ممن شئت من شعراء المبالغات كما ينسب إليه في ذلك العصر الذي نأت الحياة فيه عن مظاهر البساطة وجنحت فيه المعاني إلى الغلو الذي يشين والذي يقرب من الكذب، بل قد يصل في بعض الأحيان إلى درجة الكفر.

ومن الذين مدحهم من أصحاب الفضل عليه أبو الفضل بن العميد وهو أستاذه ومدربه ومن قوله فيه يذكر نقرساً أصاب يمناه:

أبو الفضل من أجرى إلى الفضل يافعاً فظل به يدعى وصار به يكنى
سلامته شمس المعالي وسقمه كسوف المعالي لا كسفن ولا بنا
ولم يأته ورد السقام لغير ما عرفنا فخذ معنى تألمه منا

وما راده إلا ليشغل عن ندى　　وإلا فلم قد خص بالألم اليمنى
وما يحجز البحر الخضم عن الندى　　ولا السيد الأستاذ عن جوده يثنى

وهي كلمة وفاء كان جديراً أن يكتبها لأستاذه في علته وقد ظهر فيها ذلك المعنى البكر الذي أحسن فيه التعليل وادعى فيه أن العلة انما لزمت يده اليمنى لتكفه عن نداه المسرف ولكن هيهات أن تثنيه عما طبع عليه كالبحر لا يستطيع أن يكفه أحد عن العطاء!

أما الإخوانيات فإن للصاحب المقام الأوفى في صياغتها وتكاد تسيل رقة لفرط ما حملته من ألوان الصفاء في معانيها وفي لغتها التي لا تجد فيها كلمة نابية أو لفظاً مستكرهاً وإنما هي أشبة شيء بالنمير الصافي الذي لا يكدره تصنع ولا تعمل ولا اكراه بل هو يجري فيها على سجية رفيقة وطبع سلسال لا يتحجر ولا يتعثر فهو إذا تحدث إلى صاحبه في مداعبة أو عتاب فكأنه يتحدث عن نفسه أو كأنه يحدث نفسه لفرط ما أصفى من الود وما بذل من صفاء الروح. وتجد مثلاً لهذه الشاعرية المليئة بالود المترعة بالصفاء في مثل ما كتب إلى أبي الفضل بن شعيب:

يا أبا الفضل لم تأخرت عنا　　فأسأنا بحسن عهدك ظنا
كم تمنت نفسي صديقاً صدوقاً　　فإذا أنت ذلك المتمنى
فبغصن الشباب لما تثنى　　وبعهد الصبا وإن بان منا
كن جوابي إذا قرأت كتابي　　لا تقل للرسول كان وكنا

وفي مثل ما كتب إلى أبي بكر الخوارزمي:

أسعدك الله بيوم الفصح　　وعشت ما شئت بيوم سمح

يا رأس مالي في الورى وربحي　　وظفري ونصرتي ونجحي
شرباً ولا تصغ لأهل النصح　　فالحزم أن تسكر قبل تصحي
سكر النصارى في غداة الفصح

أرأيت إلى الصاحب كيف يحيي هذا الصديق الأديب، وكيف يتبسط معه في الحديث ويتلطف معه في الخطاب وكيف يعده رأس ماله وربحه وظفره ونصرته ونجاحه؟ ثم انظر الجزاء الذي يلقاه به الخوارزمي وقد نال من بره وتقريبه الكثير، في مثل قوله:

لاتحمدن ابن عباد وان هطلت　　كفاه يوماً ولا تذممه ان حرما
فإنها خطرات من وساوسه　　يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرما

ماذا كان يريد أولئك الأصفياء من ذلك الرجل الذي قربهم وأفاض عليهم من أدبه وماله وقلبه ما كان يستطيع؟ لعلهم كانوا لا يقنعون إلا بأن يصبوا أموال الدولة وأمواله في جيوبهم أو ينزل لهم عن منصبه ليخلفوه فيه!

ما هذا الجحود الغريب الذي يثني الكرام عن المكارم وينتزع من القلوب الثقة بمن هم أحق الناس بالثقة ممن ينتسبون إلى العلم أو إلى الفن إن مثل هذا الجحود لسبب من أعظم الاسباب في تزهيد الفضلاء في الفضل وترغيب الكرام عن المكارم وما أصدق الذي قال: والكفر مخبثة لنفس المنعم: وما أحق الصاحب أن يقول عندما بلغه خبر وفاة أبي بكر الخوارزمي:

أقول لركب من خراسان رائح　　: أمات خوارزميكم؟ قيل لي: نعم
فقلت: اكتبوا بالجص من فوق قبره　　«ألا لعن الرحمن من كفر النعم»!

وهما بيتان يشعران بما كان يجده الصاحب من مرارة الجحود ممن أحسن إليهم وأحسن بهم الظن ومن إخوانيات الصاحب الرقيقة الرائقة ما كتبه إلى صاحبه أبي القاسم القاشاني:

يـا أبـا الـقـاسـم قـل لـي قـل لـمـاذا لا تـزور
كـنـت قـد قـدمـت وعـداً فـإذا وعـدك زور
وبـزرت الـودّ بـالـقـو ل فـلـم تـزك الـبـذور
ونـحـرت الـود بـالـهـجـر كـمـا يـهـدى الـجـزور
ان أم الـصـدق فـي الـسـود لـمـقـلاة نـزور

وفي هذا العتب المتبسط الذي كتبه إليه:

مـولاي لـم تـدع عـبـدك عـنـد احـضـار الـمـدام
أعـرفـتـه مـن بـيـنـهـم مـتـبـسـطـا وقـت الـطـعـام
أم قـيـل عـربـد ذات يـو م حـيـن صـار إلـى الـمـدام
أم لـم يـسـاعـد حـيـن مـلـت إلـى الـغـلامـة والـغـلام
ان كـنـت تـبـخـل بـالـطـعـام فـكـيـف تـبـخـل بـالـكـلام
لـسـنـا نـحـاول دعـوة فـاسـمـح عـلـينا بـالـسـلام

وحدث الثعالبي عن أبي نصر التهذيبي قال: سمعت القاضي أبا الحسن ابن عبد العزيز الجرجاني يقول انصرفت يوماً من دار الصاحب وذلك قبيل العيد فجاءني رسوله بعطر الفطر ومعه رقعة بخطه فيها هذان البيتان:

يا أيها القاضي الذي نفسي له مع قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فـكـأنما أهـدي لـه أخـلاقـه

قال: وسمعته يقول: ان الصاحب يقسم لي من اقباله واكرامه بجرجان أكثر مما يتلقاني به في سائر البلاد وقد استعفيته يوماً من فرط تحفيه بي وتواضعه لي فأنشدني:

أكـرم أخـاك بـأرض مـولـده وأعـزّه مـا نـيـل فـي الـوطـن
فـالـعـز مـطـلـوب ومـلـتـمـس وأمـده مـن فـعـلـك الـحـسـن

ثم قال: قد فرغت من هذا المعنى في العينيه فقلت لعل مولانا يريد قولي:

وشيدت مجدي بين قومي فلم أقل ألا ليت قومي يعلمون صنيعي

فقال: ما أردت غيره والأصل فيه قوله «ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين»

فهذا كلام من يعرف الفضل لأصحابه ومن ينصف الصديق ومن يعرف أثر تكرمته في وطنه وبين أهله وعشيرته وهو أثر بعيد لا يدركه إلا عالم بأسرار النفوس من أمثال الصاحب في فطنته وبعد نظره وطهارة قلبه.

أما الوصف فقد كان الصاحب فيه من أعلام المبرزين وأوصافه تزخر بالتصوير الرائع وتفيض بالتشبيهات البارعة واكثر في مباهج الطبيعة وفي الازهار والثمار وفي الخمريات وهو صاحب البيتين المشهورين اللذين هام بهما البلاغيون:

رق الـزجـاج ورقـت الـخـمـر فـتـشـابـهـا فـتـشـاكـل الامـر
فـكـأنـمـا خـمـر ولا قـدح وكـأنـمـا قـدح ولا خـمـر

ومن خمرياته:

وقهوة قد حضرت بختمها ... فقلت للندمان عند شمها
لا تقبضن بالماء روح جسمها ... فحسبها ما شربت من كرمها

وقوله:

متغايرات قد جمعن وكلها ... متشاكل أشباحها أرواح
وإذا أردت مصرحاً تفسيرها ... فالراح والمصباح والتفاح
لو يعلم الساقي وقد جمعن لي ... من أي هذي تملأ الاقداح

وقوله:

ولما بدا التفاح أحمر مشرقاً ... دعوت بكأس وهي ملأى من الشفق
وقلت لساقيها: أدرها فانها ... خدود عذارى قد جعلن على طبق

ومن أبدع ما قال فيها من قصيدة:

وكأس تقول العين عند جلائها ... أهل لخدود الغانيات عصير
تحاميتها الا تعلل واصف ... وقد يطرب الانسان وهو كبير

وقوله في جلوسه مع الشرب من غير شرب.

تمتع ندمان بها وأحبة ... وحظي منها أن أقول ألا انعمي
لك الوصف دون القصف مني فخيمي ... بغير يدي وارضي بما قاله فمي

ومن ملح أوصافه وتشبيهاته:

أقبل الشيح فانبسط بسرور ... ولشرب الكبير بعد الصغير

أقبل الجو في غلائل نور | وتهادى بلؤلؤ منثور
فكأن السماء صاهرت الأر | ض فصار النثار كالمنثور

وقال في النارنج:

بعثنا من النارنج ما طاب عرفه | فقيل على الأغصان منه نوافج[1]
كرات من العقيان أحكم فرطها | وأيدي الندامى حولهن صوالج[2]

وقال في الند[3]:

ند لفخر الدولة استعماله | قد زاد عرفاً من نسيم يديه
فكأنما عجنوه من أخلاقه | وكأنه طيب الثناء عليه

وقال في حبة عنب:

وحبة من عنب | من المنى متخذه
كأنها لؤلؤة | في وسطها زمرده

وقال فيها أيضاً:

وحبة من عنب قطفتها | تحسدها العقود في الترائب
كأنها من بعد تمييزي لها | لؤلؤة قد ثقبت من جانب

---

(١) النوافج: جمع نافجة هو وعاء المسك (معرب).
(٢) العقان: الذهب الخالص.
(٣) الند: بفتح النون وكسرها. طيب أو هو العنبر.

وقال في التين:

تين يزين رواؤه مخبوره | متخير في وصفه بتحير
عسل اللعاب لديه مما يجتوى | وجنى النخيل لديه مرٌّ ممقر
وكأنماهو في ذرا أغصانه | قطع النضار أدارهنَّ مدور
ويقول ذائقه لطيب مذاقه | الله اكبر والخليفة جعفر

ومن قوله يصف الشمع:

ورائق القد مستحب | يجمع أوصاف كل حب
صفرة لون وسكب دمع | وذوب جسم وحر قلب

وقال في الخط واللفظ:

بالله قل لي أقرطاس تخط به | من حلة هو أم ألبسته حللا؟
بالله لفظك هذا سال من عسل | أم قد صببت على أفواهنا عسلا؟

ومن ملح شعره في الغزل:

وشادن أصبح فوق الصفه | قد ظلم الصب وما أنصفه
كم قلت اذ قبل كفي وقد | تيمني، يا ليت كفي شفه

وقوله:

تسحب ما أردت على الصباح | فهم ليل وأنت أخو الصباح

لقد أولاك ربك كل حسن ... وقد ولاك مملكة الملاح
وبعد فليس يحضرني شراب ... فأنعم من رضابك لي براح
وليس لدي نقل فارتهني ... بنقل من ثناياك الوضاح

وقال من باب الاقتباس من الحديث الشريف:

ومهفهف يغني عن القمر ... قمر الفؤاد بفاتن النظر[1]
خالسته تفاح وجنته ... من غير ابقاء ولا حذر
فأخافني قوم فقلت لهم ... «لاقطع في ثمر ولا كثر[2]»

ومن بديع غزله:

أتاني البدر باكياً خجلاً ... فقلت ماذا دهاك ياقمر؟
قال غزال أتى ليعزلني ... بحسنه فالفؤاد منفطر
فقلت قبل ترابه عجلاً ... واسجد له قال كل ذا غرر
قد بايعت أنجم السماء له ... فليس لي مفزع ولا وزر

وقال متغزلاً:

بدا لنا كالبدر في شروقه ... يشكو غزالاً لج في عقوقه
يا عجبا والدهر في طروقه ... من عاشق أحسن من معشوقه

قال أبو بكر الخوارزمي: أنشدني الصاحب هذه القوافي ليلة وقال: هل

---

(١) امرأة مهفهفة: ضامرة البطن.
(٢) الكثر. بفتحتين. جمار النحل والشطر كله حديث «لا قطع في ثمر ولا كثر».

تعرفون نظيراً لمعناها في شعر المحدثين؟

فقلت: لا أعرف إلا قول البحتري:

ومن عجب الدهر أن الأميـ ـر أصبح أكتب من كاتبه

فقال الصاحب: جودت وأحسنت وهكذا فليكن الحفظ وللصاحب في شعر المجون باع طويل يقصر عنه المفلقون المجودون وكان مبعث ذلك روح النقد التي تمكنت منه فبرع في رسم صور خلابة تشيع فيها روح السخرية ممن سلط عليهم شاعريته المبدعة وله هجاء لاذع يقصر عنه الهجاؤون الذين تخصصوا في النيل من الأعراض ومن قوله في قاضٍ لم يثبت عنده هلال شوال:

ان قاضينا لأعمى أم على عمد تعامى؟
سرق العيد كأن الـ ـعيد من مال اليتامى؟

وقوله فيه:

يا قاضياً بات أعمى عن الهلال السعيد
أفطرت في رمضان وصمت في يوم عيد

وأنشد له الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي:

نبئت أنك منشد ما قلته في سب عرضك لا تخاف وعيدي
والكلب لا يخزى إذا أخسأته والقار لا يخشى من التسويد

وأنشد له غيره:

تزلزلت الأرض زلزالها فقالوا بأجمعهم ما لها
مشى ذا الثقيل على ظهرها فأخرجت الأرض أثقالها

ولو ذهبنا نتخير للصاحب روائع شعره في سائر الفنون التي أجاد فيها الصاحب وأبدع ثم شرحنا أسباب الإجادة ومظاهر الإبداع لاتسع مجال القول وضاقت عنه هذه الصفحات ولكن نجتزئ بهذه الامثال التي يستطيع القارىء أن يستشف من خلال طبيعة شعر الصاحب وما أتيح له من ملكة بارعة وقدرة فائقة على التحليق في سماء هذا الفن الرفيع ونختم هذه الروائع بقوله:

وقائلة لم عرتك الهموم وأمرك ممتثل في الأمم
فقلت دعيني على غصتي فان الهموم بقدر الهمم

ولا يتسرب إلينا شك في أن أي ناظر الى هذا الشعر سيقع منه موقع القبول وأنه سيجد فيه من القوة ما يرفعه الى درجة الفحول المطبوعين، ولكن أبا خيان التوحيدي وقد عرفنا من عداوته للصاحب ما عرفنا وعرفنا ولوعه بثلبه وانتقاصه لما قدمنا من الأسباب يذكر جملة من الآراء تساير رأيه في الصاحب وينسبها إلى غيره من الناس والله أعلم بصحة ذلك فقد سأله الوزير أبو عبدالله العارضي: كيف بلاغة الصاحب من بلاغة ابن العميد؟ وأين طريقته من طريقة ابن يوسف والصابي؟ وأراد أبو حيان أن ينسب ما أراد من قدح في الصاحب إلى غيره فقال. قد سألت جماعة عن هذا فأجابني كل واحد بجواب إذا حكيته عنه كان ما يقال فيه ألصق

وكنت من الحكم عليه وله أبعد!.

سألت ابن عبيد الكاتب عن ابن عباد في كتابته فقال يرتفع عن المتعلمين فيها بدرجة أو درجتين.

وقال علي بن القاسم: هو مجنون الكلام تارة تبدو لك منه بلاغة قسّ، وتارة يلقاك بعيّ باقل تحريف كثير في المعاني وإحالة في الوضع وغلط في السجع وشرود عن الطبع.

وقال ابن المرزبان: هو كثير السرقة سّيىء الانفاق رديء القلب فروقة[١] في ايراده هزيمته قبل هجومه وإحجامه أظهر من إقدامه.

وقال الصابي: هو مجتهد غير موفق «وفاضل غير منطلق[٢] وقال علي ابن جعفر: هو يكذب فقسه بحسن الظن في البلاغة وطباعه تصدق عنه بالتخلف، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى فأما شينه اللفظ فبالجفوة والغلظة والاخلال والفجاجة. وأما احالته فبالابعاد عن حومة القصد والارادة والعجب أنه يحفظ الطم والرم[٣] من النثر والنظم ثم اذا أدعاهما يقع دونهما سقوطاً أو يتجاوزهما فروطاً[٤] وهذا مع الكبر الممقوت والتشيع الظاهر والدعوى العارية من البينة العادلة.

وقال أحمد بن محمد: بلي ابن عباد في هذه الصناعة بأشياء كلها

---

(١) رجل فروقة شديد الفرق . بفتحتين . وهو الفزع.

(٢) غير منطلق أي غير بليغ النطق.

(٣) الطم والرم: العدد الكثير يقال جاء بالطم والرم والطم في الاصل الماء الكثير أو ما ساقه الماء من غثاء، والرم الثرى.

(٤) الفروط التقدم.

عليه لا له، فأول ما بلي به أنه فقد الطبع وهو العمود والثاني العادة وهي المواتية[١] والثالث الشغف بالجاسي[٢] من اللفظ وهو الاختيار الرديء والرابع تتبع الوحشي وهو الضلال المبين والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى والسادس استكراه المقصود من المعنى واللقط على النبوة والسابع التعاظل[٣] المجهول بالاعتراف والثامن ألف الرسوم الفاسدة من غير تصفح ولا فحص والتاسع قلة الاتعاظ بما كان. لنثقة الواقعة في النفس ـــ من الفائت، والعاشر تنفيق المتاع بالاقتدار في سوق العز، وهذه كلها سبل الضلالة وطرق الجهالة[٤].

ونعتقد أن شيئاً من هذا الكلام أو هذه النعوت لا ينطبق على شيء من شعر الصاحب وان كان ينطبق بعضه على شيء من نثره المسجوع من أمثلة ما روى أبو حيان نفسه شيئاً منه أوردناه فيما تقدم وقلنا رأينا فيه وهذا أيضاً على فرض التسليم بصحة ما أورد من السجع المتكلف واللفظ الغريب والحوشيّ وعلى فرض التسليم ايضاً بصحة صدور هذه الاحاديث والآراء عمن ذكر أسماءهم!

ولا يستبعد الاستاذ أحمد أمين في مقدمته التي كتبها للإمتاع والمؤانسة أن يكون أبو حيان قد تزيد فيه واخترع أشياء لم تجر في مجلس الوزير فقد عرف عنه أمثلة من هذا القبيل وقد اتهمه العلماء من قبل ومنهم ابن أبي

---

(١) المواتية أي المساعدة المعينة.

(٢) الجاسي: الجاف الصلب.

(٣) التعاظل: التعقيد وللتعاظل معان أخرى أكثرها مناسبة هنا التعبير بعدم تنسيق الكلام ووضع كل كلمة في موضعها.

(٤) الامتاع والمؤانسة ٦٥/١.

الحديد بأنه وضع الرسالة المشهورة المعزوة إلى أبي عبيدة على لسان أبي بكر وعمر في حق علي بن أبي طالب ولعل هذا التزيد كان من ضمن الاسباب التي دعته أن يرجو أبا الوفاء. وهو الذي كتب له ما جرى بينه وبين الوزير أبي عبدالله العارفي. في أن يكون الكتاب سرا فإنه ألف الكتاب في حياة الوزير وخشي أن يطلع عليه الوزير فيعلم مقدار ما تزيد[1].

لقد جمع القائلون في هذه الكلمات أو جمع لهم أبو حيان جميع عيوب الفن الأدبي وصبوها على أدب الصاحب الذي لم يبرأ ولا سيما بعض نثره منها ولكن تجريد هذا الأدب من كل مزية وإلصاق كل نقص به محال في مجال النقد النزيه الخالص من نزعات الكيد والانتقام التي سمحت آراء أبي حيان ورواياته أبي حيان.

ذلك أن القول المطبوع والأدب الصافي والشاعرية المرهفة كل ذلك واضح المعالم في أدب الصاحب لكل منصف يطلع على شعره واكثر نثره.

لقد كان الصاحب يرتجل الشعر فتخال لفرط اتقانه وصفاء ديباجته أنه شعر معد مهذب أعاد صاحبه النظر فيه لولا أن رواته سمعوا هذا الشعر وأخبروا عن ارتجاله في مناسباته بل لقد كان الصاحب يسبقهم إلى أشطرهم وقوافيهم التي ينشدونها في حضرته فتكون تلك الأسطر هي عين ما قالوا ومن أمثلة ذلك ما حدث أبو الرجاء الضرير الشطرنجي العروضي

(١) انظر مقدمة، الامتاع والمؤانسة بقلم الاستاذ أحمد أمين ص: ف.

الشاعر الأهوازي في قوله: قدم علينا الصاحب بن عباد في السنة التي جاء فيها فخر الدولة ولقيه الناس ومدحه الشعراء فمدحته بقصيدة قلت فيها:

إلى ابن عباد أبي القاسم الصا   حب اسماعيل كافي الكفاة

فقال الصاحب: قد كنت والله أشتهي أن تجتمع كنيتي واسمي ولقبي واسم أبي في بيت:

قال أبو الرجاء فلما انتهيت إلى قولي فيها:

ويشرب الجيش هنيئاً بها

قال الصاحب: يا أبا الرجاء: أمسك فأمسكت فقال: ويشرب الجيش هنيئا بها.

قال الصاحب: يا أبا الرجاء: أمسك فأمسكت فقال:

ويشرب الجيش هنيئاً بها   من بعد ماء الري ماء الصراة[1]

هكذا هو؟ قلت: نعم قال: أحسنت: قلت: يا مولاي أحسنت أنت عملت أنا هذا في ليلة وأنت عملته في لحظة[2].

وروى عون الهمذاني أن الصاحب أتي بغلام مثاقف[3] فلعب بين يديه فاستحسن صورته وأعجب بمثاقفته فقال لأصحابه: قولوا في وصفه فلم يصنعوا شيئاً فارتجل الصاحب!

---

(١) الصراة نهر بالعراق.

(٢) معجم الادباء ٦/٢٥٤.

(٣) المثاقفة الملاعبة بالسلاح.

مثاقف في غاية الحذق   فاق حسان الغرب والشرق
شبهته والسيف في كفه   بالبدر اذ يلعب بالبرق[1]

وانتحل أحد المتشاعرين بعض شعر الصاحب ليمدحه به فبلغ الصاحب ذلك فقال: أبلغوه عني:

سرقت شعري وغيري   يضام فيه ويجزع
فسوف أجزيك صفحاً   يكد رأسا وأخدع
فسارق المال يقطع   وسارق الشعر يصفع

وكتب إليه أبو منصور الجرجاني:

قل للوزير المرتجى   كافي الكفاة الملتجا
اني رزقت ولدا   كالصبح إذ تبلجا
لا زال في ظلك ط   ل المكرمات والحجا
فسمه وكنّه   مشرفا متوجا

فوقع الصاحب تحت هذه الأبيات:

هنئته، هنئته   شمس الضحى، بدر الدجى
فسمه «محسناً»   وكنه «أبا الرجا»

وأهدى العميري قاضي قزوين إلى الصاحب كتباً وكتب معها:

العميري عبد كافي الكفاة   ومن اعتد في وجوه القضاة

(١) يتيمة الدهر ٢٠٢/١ ووفيات الأعيان ١٢٢٥/٢.

خدم المجلس الرفيع بكتب مفعمات من حسنها مترعات

فوقع الصاحب تحتها:

قد قبلنا من الجميع كتابا ورددنا لوقتها الباقيات
لست أستغنم الكثير فطبعي قول «خذ» ليس مذهبي قول «هات»

وكتب الصاحب إلى أبي هاشم العلوي وقد أهدى إليه في طبق فضة عطراً:

العيد زارك نازلاً برواقكا يستنبط الاشراق من اشراقكا
فاقبل من الطيب الذي أهديته ما يسرق العطار من أخلاقكا
والظرف يوجب أخذه مع ظرفه فأضف به طبقاً إلى أطباقكا

ولما أتت الصاحب البشارة بسبطه عباد بن علي الحسن ولم يكن للصاحب ولد غير أمه وكان قد زوجها من أبي الحسن علي بن الحسين الحسن الهمذاني وكان شاعراً أديباً بليغاً أنشأ الصاحب يقول:

أحمد الله لبشرى أقبلت عند العشي
إذ حباني الله سبطا هو سبط للنبي
مرحبا ثمت أهلا بغلام هاشمي
بنوي علوي حسني صاحبي

ثم قال:

الحمد لله حمداً دائماً أبداً قد صار سبط رسول الله لي ولدا

والحقيقة أن كثيراً من هذه الاشعار المرتجلة لا يصور الفحولة التي يتصف بها شعر الصاحب فإن فيها من بساطة التعبير ومن قرب المعاني ما يهبط بها كثيراً عن درجات شعره الرائق الممتاز ولكن مواقف الارتجال وغزارة البداهة من غير اعداد أو تعبير ترقى به إلى درجة الشعر الذي نجد فيه عذوبة الصاحب وسماحة طبعه حتى لقد يكون في الامكان القول بأن الصاحب لو أراد أن يكون كل كلامه على هذا النمط من الشعر لم يتأب عليه القول ولم يستعص عليه شيء يريده، فقد أصبح القريض طوع بنانه يكاد يسيل على عذبات لسانه.

الفهرس